




Shorouk Penguin  شروق بنجوين

نيقولو ماكيافلي

الأمير

الناشئ

كانت روائع الأدب العالمي قبل ظهور سلسلة كلاسيكيات بنجوين في الأربعينيات من القرن الماضي مجال اهتمام الطلاب والأكاديميين في المقام الأول. وقد غيرت كلاسيكيات بنجوين ذلك بجعل أفضل الروائع متاحة لأوسع دائرة ممكنة من القراء. وقد بدأت السلسلة في نشر باكورة أعمالها عام ١٩٤٦ بترجمة الأوديسة لهوميروس التي حققت نجاحًا فوريًا، وبيع منها ما يربو على ثلاثة ملايين نسخة، ليتضاعف عدد كلاسيكيات بنجوين على مر السنين، وتصل عناوين السلسلة اليوم إلى ١٧٠٠ عنوان.

ويهدف مشروع النشر المشترك هذا مع دار بنجوين إلى إصدار روائع الفكر والأدب العالمي في طبعات جديدة كاملة لقراء العربية، ولاختيار بعض كنوز الإبداع العربي ضمن السلسلة. ويعد هذا المشروع علامة بارزة في مسيرة دار الشروق، تأمل من خلاله أن يمثل نقلة نوعية في حركة النشر والترجمة، تثري المكتبة العربية وتلبي وتنمي حاجات القراء العرب.

وقد توخى المشروع في اختيار الأعمال التي يفتح بها السلسلة الجمع بين إعادة الاعتبار لبعض روائع الترجمة العربية للكلاسيكيات لمفكرين ومبدعين مصريين وعرب قاموا بترجمة هذه الأعمال منذ عقود خلت، وبين بعض الترجمات الجديدة، وهو الأمر الذي يسعى هذا المشروع إلى المضي فيه بحيث نحافظ على الكثير من الترجمات الرائدة المهددة بالاندثار، في الوقت نفسه الذي نسهم من خلاله في إغناء المكتبة العربية بترجمات جديدة ذات قيمة رفيعة.

The Prince by Niccolò Machiavelli

**Published by Dar El Shorouk
in association with Penguin Books Limited.**

**Penguin and the associated logo and trade dress are registered
and/or unregistered trademarks of Penguin Books Limited.**

Used with permission. All rights reserved.

Introduction copyright © Anthony Grafton, 1999.

الأمير

نيقولو ماكيافلي

ترجمة وتعليق محمد مختار الزقزوقي

صورة الغلاف رسم سانت دي نيتو

تم نشرها بالاتفاق مع Bridgeman Art Library

المحرر العام للسلسلة: منى عبد العظيم أنيس

الطبعة العربية الأولى ٢٠١٢

الطبعة العربية الثالثة ٢٠١٥

© دار الشروق

٨ شارع سيويه المصري مدينة نصر - القاهرة - مصر

www.shorouk.com

رقم الإيداع ٢٠١٢/١٧٢٣٤

ISBN 978-977-09-3169-1

ماكياثلي وكتاب الأمير

ترجمة وتحليل وتعليق
محمد مختار الزقزوقي

شروق- بنجوين  Shorouk Penguin

الناشئ

فهرس المحتويات

تقديم الترجمة العربية

٩ محمد مختار الزقزوقي

مقدمة ترجمة الطبعة الإنجليزية

١٣ أنطوني جرافتون

نص الأمير

٣٩ خطاب من ماكيافللي إلى لورنتسو الأعظم

الفصل الأول

٤١ في أنواع الحكم المختلفة ووسائل إقامتها

الفصل الثاني

٤٣ في الإمارات الوراثية

الفصل الثالث

٤٥ في الإمارات المختلطة

الفصل الرابع

لماذا لم تثر مملكة داريوس، وقد احتلها الإسكندر على خلفائه

٥٥ عقب وفاته؟

الفصل الخامس

- في طريقة حكم المدن والبلاد التي كانت تعيش قبل احتلالها
في ظل قوانينها الوطنية..... ٥٩

الفصل السادس

- في الولايات الجديدة التي اكتسبت بأسلحة الأمير الخاصة
وقدراته ٦١

الفصل السابع

- في الإمارات الجديدة التي اكتسبت بالحظ والسلاح الأجنبي..... ٦٧

الفصل الثامن

- من وصلوا إلى الإمارة بالجريمة..... ٧٧

الفصل التاسع

- في الإمارات المدنية..... ٨٣

الفصل العاشر

- كيف يجب قياس قوة الإمارات كافة؟..... ٨٩

الفصل الحادي عشر

- في الإمارات الكنسية..... ٩٣

الفصل الثاني عشر

- في الأنواع المختلفة للجندية وفي الجنود المأجورين ٩٧

الفصل الثالث عشر

١٠٣ في القوات المأجورة والمختلطة، والوطنية

الفصل الرابع عشر

١٠٩ واجبات الأمير فيما يتعلق بموضوع فن الحرب

الفصل الخامس عشر

١١٣ فيما يلام عليه الرجال أو يمدحون له وبخاصة الأمراء منهم

الفصل السادس عشر

١١٥ في السخاء والتقتير

الفصل السابع عشر

١١٩ في الشدة واللين وفيما إذا كان الأفضل أن يكون الأمير محبوبًا أو مهوبًا

الفصل الثامن عشر

١٢٣ في الطريقة التي يحفظ الأمراء بها عهدهم

الفصل التاسع عشر

١٢٧ في أنه يجب على الأمير مجانبة أن يكون مُزْدَرَى أو مُبَغَضًا

الفصل العشرون

١٣٩ فيما إذا كانت القلاع والأمور الأخرى التي غالبًا ما يلوذ بها الأمراء مفيدة أو ضارة

الفصل الحادي والعشرون

كيف ينبغي لأمير أن يسلك لينال الشهوة؟ ١٤٥

الفصل الثاني والعشرون

في أمناء الأمراء ١٥١

الفصل الثالث والعشرون

كيف يجب الفرار من المتملقين؟ ١٥٣

الفصل الرابع والعشرون

لماذا أضاع أمراء إيطاليا ولاياتهم؟ ١٥٧

الفصل الخامس والعشرون

القدر الذي يلعبه الحظ في الأمور البشرية وكيف يمكن التصدي له ١٥٩

الفصل السادس والعشرون

الحض على تحرير إيطاليا من البرابرة ١٦٣

الملاحق

تقديم موسوليني للطبعة الإيطالية عام ١٩٢٤ ١٧١

لمحات من حياة نيقولو ماكيافللي ١٧٩

فهرس الأعلام ١٨٥

تقديم الترجمة العربية محمد مختار الزقزوقي

شهدت النهضة الأوربية هوى روادها العنيف من أجل اجتلاء أنسجة العالم الهامة؛ وكان من بين أعقدها النسيج السياسي الذي انتزعه نيقولو ماكيافللي من مكانه ليحلله فمزقه في جراحة هادفة، وحماس قاس، وبروح موضوعي جاف - وجميع هذه المعاني مظاهر الإحساس بمدى النهضة وعمقها، وهي تغري العقل بواجب تحرير طاقات الإنسان المبدعة. أخذ ماكيافللي يحلل عقد هذا النسيج بسداته ولحمته، فدار في إحدى محاولاته حول صانع النسيج نفسه، يدرس طبيعته، ويصور القانون الذي يحكمها، بعد أن استقرأ شتى انطباعات الطبيعة البشرية على وجه التاريخ السياسي، ثم أودع نتائجه في كتيب ما زال التاريخ يخلده، إذ هو من أهم المراجع الأساسية في فنون السياسة والحكم، وأساليب النفوذ والسلطان. ولكن ما جاء في الكتاب من أفكار جعل صاحبه مرادفًا للشيطان تارة، وعدوا للأخلاق تارة أخرى. إنني أعني «كتاب الأمير» الذي أريد به تصوير قواعد فن المسرحية السياسية الخالد، وتحذير الحاكم من آفات الحكم الضعيف في طبيعته وأساليبه وغاياته. ولقد كانت إيطاليا حينذاك خالية من الديمقراطية الحديثة فيما عدا قدرًا ضئيلاً جداً، ومن هنا عد الكتاب موردًا للطغاة والمستبدين يردون إليه حين

تستبد بهم شهوة نهمه لإحكام السيطرة على الشعوب وشدها بشتى القيود، وذلك بدلاً من أن يكون دليلاً لأنصار الحكم الديموقراطي القومي الصحيح، يدلهم إلى أن لواء الأمة الواحدة لا بد من أن ترفعه يد دولة واحدة، تكون «كإله يمشي على الأرض» - حدود أخلاقها الوطن الحر، وحدود حرية الوطن النظام، وحدود النظام المصلحة العامة، وحدود المصلحة العامة السيادة والقوة من جهة، والعدالة والثراء من جهة أخرى. ولا ضمان لهذه العدالة وتلك السيادة سوى جيش وطني قوي كأسنان التنين يحمي العرض والأرض من النفوذ الأجنبي، وقوانين عادلة تحمي جميع المواطنين، وتؤثر أصحاب «القدرة»، وتثيب العاملين، وتدين المتخلفين، وتعاقب المقصرين، وتحاسب المفرطين في «حق الدولة». وعلى رأس الدولة قيادة عسكرية سياسية، أو سياسية عسكرية؛ لأن المشكلة السياسية والمشكلة العسكرية مشكلة واحدة لا تقبل تقسيماً، هذا إذا أردنا للوطن مكانة فوق جبهة الشمس، وللأمة عظمة ومجداً، و«للجماعة» الوجود في أروع مظاهره.

ولكن ما السبيل إلى إبراز جميع ملامح مذهب ماكيا فليلي هذه وغيرها، وأنا أتناول بالدراسة واحداً من مؤلفاته دون الأخرى، وهو أكثرها مرارة وإثارة وفتنة؟ إنه «كتاب الأمير». ولكن هذه الفتنة وتلك المرارة كانتا مثار للهفة على محاولة هضم نصوصه، ووضعها في إطاراتها التاريخية والسياسية والعسكرية؛ بشرط ألا أجعل مجرى الكتاب ينحو في اتجاه يتجاوز الحدود التي رسمها ماكيا فليلي لفكرته، ومن هنا كان لا بد من أن أصبح به خلال شتى آثاره وكتبه، وعند شراحه ونقاده، ومع تلاميذه ومريديه، وفي زمرة مهاجميه ومحبيه. وفي النهاية، اجتدرت آثار هذه الصحبة العقلية وصبيتها

في قالب هذه الدراسة التي أطمع في أن أسد بها بعض النقص في مكتبتنا العربية.

وإذ أشرف على خاتمة هذا التصدير أحس ببعض المعاني تثور في شتى اتجاهات النفس، إلا أنني أجدها جميعاً تدور حول حقيقة واحدة أو من بها وتملاً عليّ نفسي، ألا وهي ضرورة النظر إلى شتى المذاهب والأفكار السياسية - حتى ولو بدا لنا أنها قطعت شوطاً بعيداً على جادة الصواب - من خلال نافذة واحدة عالية، لها حرمتها وقديسيته، وهذه هي نافذة «الوطن»، وعلى أساس «ما يناسب حقوقه ومصالحه»، وما يتصل بذلك من «واجبات». و«ما أندلنا إذا فعلنا من أجل أنفسنا ما نفعله من أجل الوطن».

والله أكبر، والعزة لأمتنا العربية، والمجد لجمهوريتنا الفتية.

محمد مختار الزقزوقي

القاهرة في ٢٢ ديسمبر ١٩٥٨

مقدمة الطبعة الإنجليزية أنطوني جرافتون*

الطاغية يُرهب رعاياه. يطل على العاملين من علياء قصره الحصين مستطلعًا بعيون جاسوس أشام، ويقترّب من الفريسة أو المفترسين بحساسية عنكبوت يتوازن بخفة في قلب نسيج عنكبوتي، ويهيمن على حياة جميع من حوله. يكتسب سمعة على حساب إنجازات رجال أكثر نبلاً أنفقوا مالهم في مشروعات عامة، كالكنائس الضخمة وغير ذلك من الأبنية الأنيقة. يقيم حفلات لتسلية سفراء القوى الأجنبية، ويتخذ قرارات تضر بمصالح الرعايا من دون استشارة أحد عدا المقربين إليه. ويحيل دولته بكاملها إلى وسيلة لكسبه الخاص ولكسب بعض أصدقائه. وهو لا يكف عن تجريد الأثرياء مما يملكون أو السيدات الطاهرات صغيرات السن من عفافهن. ويواجه المخاطر كافة التي تعترض انفراده بالسلطة بوحشية ضارية.

هذا الوصف لأمير - منعزل، أثيم، وحشي بصورة طاحنة في مواجهة من يقفون في طريقة - يبدو لأول وهلة وكأنه صفحة شاردة من أمير ماكيافللي، الكتاب الذي يلحن دروسًا في الأساليب التكتيكية الفعالة للحاكم المطلق؛ ذلك الأمير الذي يرى كثير من القراء أنه

* المؤلف هو: أستاذ تاريخ الفكر الأوروبي في جامعة پرستون بالولايات المتحدة الأمريكية. وكتب هذه المقدمة لطبعة البنجوين عام ١٩٩٩.

يدعو إلى القسوة وربما يمجّد أيضًا بإرافة الدماء. لكنه، في الواقع، اقتباس من مصدر مختلف جدًّا: بحث حول الحكم في فلورنسا للراهب الدومينيكاني جيرولامو سافونارولا الذي تتطابق سنوات هيمنته على السياسة الفلورنسية، من ١٤٩٤ إلى ١٤٩٨، مع بداية مرحلة النضج الفكري عند ماكيا فللي. والواقع أن خطوط التوازي بين هذين الرجلين المختلفين جدًّا لافتة للنظر. عاش سافونارولا، مثل ماكيا فللي، حياة عامة نشطة، يحاول حماية الشكل الجمهوري للحكومة الذي كان يرى أنه الشكل الأمثل لفلورنسا، وكتب أبحاثًا مكثفة قوية التصوير عن قضايا السياسة. ومثل ماكيا فللي، كان سافونارولا مغرمًا بالممثل الكلاسيكية: آمن بأن الرومان كانوا قد ابتدعوا جمهورية كانت، حتى إن لم تكن نموذجية، جمهورية تحتذى - جمهورية جعلت عاداتها القانونية من مواطنيها فعالين من خلال إتاحة الفرصة لهم بالمشاركة المنتظمة في الحياة العامة. ومثل ماكيا فللي، خاض سافونارولا بكامل الحرية الأحداث السياسية في أقصى أحوالها. وعرف الأساليب التكتيكية لطغاة إيطاليا وسيكلوجياتهم، كما عرف التقاليد المحلية للجمهورية الفلورنسية، وذلك على النحو الذي أوضحه تصويره للحاكم الطاغية. والأسوأ أنه عرف ما معنى أن يفقد دعم أولئك الذين يعنون له الكثير. فقد أدى تصديده لسلطة باباوات روما إلى صدور قرار بالحرمان ضد زملائه الفلورنسيين؛ مما تسبب في تعريض أملاكهم ومنشآتهم التجارية للخطر، وانقلب عليه كثيرون. وفي اجتماع طارئ، علق أحد المواطنين البارزين قائلاً: إن سافونارولا مستحق للدعم، لكنه لن يحصل عليه لأننا «نابتون في إيطاليا على ما نحن عليه». «إن للملكية في إيطاليا أهمية أكبر من الولاء» - عبارة كررها ماكيا فللي فعلاً في

كتاب الأمير ملاحظًا أن الرجال يمكن أن ينسوا أن فقدان آبائهم أسرع من فقدان أملاكهم. وأخيرًا، شهد سافونارولا، مثل مكيافللي، انتهاء سيرته السياسية بكارثة. لقد واجه مؤلف الأمير النفي السياسي بلا محاكمة ولا اتهام، كما تعرض المبشر الدومينيكاني لعقوبة الإعدام العلني في ميدان بياتسا ديلا سينوريا وأصبح، بالنسبة إلى مكيافللي، النموذج الأصلي للنبي الأعزل الذي لا بد أن تنتهي سيرته، في عالم الواقع، بكارثة.

يبدو أمير مكيافللي، حين يأتي المرء إلى قراءته من دون معرفة بسياقه، ككُتِّب مبهم؛ كُتِّب تنطبق مفاهيمه على مؤسسة حديثة كما تنطبق على دولة عصر النهضة. لكن مكيافللي، مثله مثل سافونارولا، كان من عدة جوانب، نتاجًا مميزًا فلورنسا؛ تلك المدينة التي ترعرع فيها، وخدم في حكومتها من عام ١٤٩٨ إلى عام ١٥١٢، وألف من أجلها سلسلة باهرة من الكتب الأصلية التي مازال حيًا في الذاكرة بسببها أكثر من أي شيء آخر: وبالأخص كتاب الأمير، وكتاب تعليقات على العقد الأول لليفي، وكتاب تاريخ فلورنسا، وقصة نبات الماندراجولا. إن ولع مكيافللي بالقضايا السياسية، وحبه العام للحديث عن الشخصيات المهمة والأمر الخطيرة، وسعيه الحثيث إلى وضع القواعد التي تتيح إمكانية التنبؤ بالطرق التي يمكن أن يستجيب بها الناس للتحديات والأزمات السياسية - كل هذه السمات الشخصية والعقلية الخاصة، وغيرها كثير، شاركه فيها عدد كبير من شباب وطنه. وهذه هي التجارب السياسية التي أدت به إلى حد التخلي عن العقائد الفلورنسية حول بعض الأمور الحيوية. وكتاب الأمير، في شكله ومضمونه، يدين بالكثير جدًا للمجتمع

الفريد والثقافة الخاصة الذين نشأ فيهما المؤلف وعمل وفكر وواجه أزمته السياسية.

كانت فلورنسا التي عرفها ماكيا قللي ودعّمها هي إحدى أهم جمهوريتين عظميين ظلّتا مزدهرتين حتى السنوات الأخيرة من القرن الخامس عشر بين الدول الكبرى، خصوصًا ميلانو والدول البابوية و نابولي؛ تلك الدول التي كانت قد فرضت سيطرتها على شبه الجزيرة الإيطالية. وبرغم كونها إحدى المدن الكبرى في أوروبا، فقد واجهت فلورنسا معانيات شديدة في سنوات الوباء الذي تفشى في القرن الرابع عشر، وتقلّصت صناعة النسيج الفلورنسي -العمود الفقري لازدهار المدينة في العصور الوسطى- كما تقلّصت القطاعات السكانية الأوربية التي كانت تشتري منتجاتها. لكن المدينة استطاعت، في القرن الخامس عشر، أن تزدهر من جديد على المستويين الخاص والعام، حتى إن لم تعد في موضع مقارنة مع قوة الجمهورية المستقلة العظمى الأخرى: البندقية. وواصل رجال البنوك والتجار جمع ثروات طائلة؛ وعوضت الصناعة الحربية الجديدة بعض خسائر الدخل التي نجمت عن تدهور تجارة

الصوف. وأصبحت فلورنسا مركزًا للدولة الإقليمية؛ تلك الدولة التي شملت مدناً مستقلة من قبل مثل بيزا وليفورنو. كما أنشئت مؤسسات جديدة مختلفة لمواجهة المشاكل العملية الناشئة، بدءًا من منظومة جديدة للضرائب قائمة على أساس الملكية إلى أسطول شراعي قاعدته بيزا.

أصبحت المدينة أحد مراكز الثقافة الكلاسيكية الجديدة المطعمة بالعناصر الهيومانية لعصر النهضة: المعلمين والمثقفين الذين ساهموا

في إنشاء المدارس والمكتبات لدراسة الكلاسيكيات اليونانية واللاتينية. في المدن الأخرى، مثل ميلانو، كانت مثل هذه الدراسات تعتمد بصورة أساسية على دعم أحد الرعاة. أما في فلورنسا، فإن هذه الدراسات كانت، بالعكس، على علاقة وثيقة بنخبة المدينة والحكومة المحلية. وقد نشأت في فلورنسا أول أعظم مكتبة علمانية عامة في العصور الحديثة، وهي مكتبة سان ماركو التي أسسها جامع كتب وخبير نبيل هو نيقولو نيقولي. وبدءاً من السنوات الأخيرة من القرن الرابع عشر، قام أمناء المدينة - كبار المسؤولين الذين كانوا يحرقون المراسلات والدعاية الرسمية - منذ كولوتشو سالوتاتي فصاعداً، بدعم دراسة الكلاسيكيات. وقد استخدم هؤلاء وشباب المثقفين الذين تعاونوا معهم، مثل ليوناردو بروني، شواهد التاريخ الروماني للفت النظر إلى أن فلورنسا نفسها خلف مباشر وكفء لروما الجمهورية، وتقوم على الفكر السياسي لكل من شيشرون وأرسطو؛ وذلك لإظهار المستوى الجيد للحياة الراهنة التي يعيشها المواطنون الفلورنسيون. وبعبارة أخرى، كانت المدينة قد أصبحت قبل الفترة التي عاش فيها ماركيا فلي بوقت طويل مركزاً للأسلوب الكلاسيكي الجديد في التعليم والثقافة. وابتداءً من منتصف القرن الخامس عشر، دأب النبلاء والموظفون الحكوميون يستشهدون بأمثلة كلاسيكية في مجرى المناظرات العامة لتبرير الخيارات السياسية. بل أصبحت طريقة المناقشة السياسية أكثر كلاسيكية. وقد أدت الثورة الفنية للقرن الخامس عشر، التي بدأت في فلورنسا، إلى تغيير ملامح المدينة بصورة جذرية؛ حيث بدأت أسرتجه بصورة مستقلة إلى توسيع رقعة المدينة بامتلاك حيازات واسعة من الأراضي بنوا عليها قصوراً ضخمة فظة في أشكالها وبواجهات ريفية وأفنية

معمّدة. وعلى خلاف منازل التجار القديمة، أصبحت دكاكين الطابق الأرضي مفتوحة على الشارع، وارتفعت أبنية كلاسيكية ضخمة، وهي الآن مغلقة وتذكارية^(٣).

كما أن تلك المناقشات الفلورنسية للقضايا السياسية ذات الأسلوب الكلاسيكي جدًّا عُنيت بالمسائل العملية. وفي خلال القرن الخامس عشر، ظلت المدينة باقية بعد سلسلة طويلة من الحروب المضنية: مع جانجالتسو فيسكونتي دوق ميلانو، ولاديسلاس ملك نابولي، وغيرهما. وشيئًا فشيئًا، فإن الأساليب التي فرضتها هذه الحروب أصبحت، بدورها، شيئًا لا تتحملها حكومة النموذج الجمهوري للمدينة. وفي عام ٣٣-١٤٣٤، عاد كوزيمو دي ميدتشي الذي كان قد نفاه معارضوه من فلورنسا إلى المدينة. والواقع أنه لم يسقط الجمهورية القائمة، ولكنه استطاع أن يتلاعب بها ويحولها بمهارة من خلال الإجراءات التي اتبعها في اختيار أعضاء لجان الحكم في المدينة بالقرعة. وقد أصر كوزيمو على أنه المواطن الفلورنسي الوحيد، حتى إن مادحيه كانوا يطلقون عليه فحسب أي «أبو البلاد»، وذلك على الرغم من النطاق الواسع لسلطاته وبرامجه البناءة التي تجعل منه ذا منزلة رفيعة في المدينة.

وفي الجيلين التاليين، صعد آل ميدتشي باعتبارهم الحكام الطبيعيين للمدينة، وذلك على الرغم من بقاء المؤسسات القديمة للجمهورية. ترك لورنتسو الأعظم حفيد كوزيمو عددًا من الأسئلة مفتوحًا عن نطاق سلطاته. لقد عاش سفراء القوى الأخرى معه فعليًّا في قصر آل ميدتشي، وكان يتفاوض بنفسه في الأزمات العامة الأكثر خطورة التي تواجهه، مثل الحرب التي شنها البابا سكستس الرابع

وقرّنتي مالك نابولي ضد فلورنسا عام ١٤٧٨، وذلك بعد أن فشل أطراف من عائلة كبرى أخرى (عائلة باتسي) في محاولتها اغتيال لورنتسو. وفي القرن السادس عشر، حين قامت القوى الأجنبية بتدمير إيطاليا وفقدت إيطاليا ما حققته في القرن الخامس عشر من استقلال، جعل الناس يذكرون عهد لورنتسو باعتباره عصرًا ذهبيًا استطاع فيه بفضل مهاراته الدبلوماسية أن يحقق توازنًا مع القوى المنافسة لإيطاليا، وعزز فيه دعمه ورعايته لفنانين رائعين مثل بوتشيلي وكتاب مثل بوليتسيانو. وقد ألف لورنتسو نفسه العديد من السونات وأغاني كرنفالية من بينها مجموعة أعماله الشهيرة^(٣) ما أجمل الشباب.

وفي عام ١٤٩٤، قام الملك الفرنسي شارل الثامن بغزو إيطاليا. وكان لورنتسو قد توفي في عام ١٤٩٢. وكان بيرو ابن لورنتسو، الذي لم يكن ليقارن بوالده في معالجة المخاطر الداخلية أو الخارجية، قد سلب ممتلكات كثيرين من أثرياء المواطنين قبل أن تحدث الأزمة. وعندما ظهر الفرنسيون، استسلم بيرو من دون أن يحارب. وعند عودته إلى فلورنسا، وجد أن معظم أهالي المدينة ثائرون ضده. وعند هذه اللحظة الحرجة، ظهر سافونارولا ليتصدر الموقف. وكثيرًا ما أدان رولا رفاقه الإيطاليين على رذائلهم وتنباؤهم بكارثة وشيكة. وعندما لاح شارل الثامن في الأفق، اكتسب سافونارولا بريقًا شديدًا، ليس فقط لأنه تنبأ بالطوفان الفرنسي، بل أيضًا لأنه أقنع شارل، كما اعتقد كثيرون، بأن يكون رحيماً بالمدينة.

وبدأ سافونارولا، وفق تقاليد التنبؤ التي سادت فلورنسا لعدة قرون، بالقول بأن المدينة ستلعب دوراً إبداعياً عظيماً في حركة

الإصلاح الديني التي تجتاح الكنيسة. وأصر أيضًا على أن الفلورنسيين لن يسعهم، إن أعطوا طاقتهم وقدرتهم السياسية، إلا أن يعيشوا في جمهورية، معرضًا هيئته لخطر إنشاء شكل جديد من الحكومة قوامها مجلس أعلى يشارك فيه عدد كبير من المواطنين. وقد نشأت هذه المؤسسة ومعها قاعة لاجتماعاتها أُسندت زخرفتها لكل من ليوناردو وميكلانجلو. ودخلت فلورنسا في تجربة طويلة وحاسمة مع الحكم الجمهوري الذي كُتب له أن يدوم، على الرغم من أزمة عام ١٤٩٨ وسقوط سافونارولا المفاجئ، حتى عام ١٥١٢^(١).

وفي محاولة يائسة للتوفيق بين كبار النبلاء والتجار الذين كانوا يرون أن مصالحهم مختلفة اختلافًا جذريًا، جاء بيرو وسوديريني، رئيس قصر الرئاسة، ليسيّطر على هذه الجمهورية. وقضى ماكيا قللي - الذي تم تعيينه في لجنة القيادة العشارية لحرب عام ١٤٩٨ - مسيرته السياسية بكاملها في خدمة حكومة سوديريني. وأصبح موظفًا مدنيًا ضليعًا، خبيرًا في إجراء المهام الحكومية وبارعًا في تفسير الرسائل الرسمية وإعدادها. وعمل ماكيا قللي في مهام داخل الدولة الفلورنسية، كما عمل دبلوماسيًا خارج البلاد. وقد ساعده تعاونه من حين إلى آخر مع فرنشيسكو فيتوري، وهو صديق حميم كريم المحتد، على التعرف إلى الأحكام الأكثر نفوذًا في عصره، في إيطاليا وفي الشمال على حد سواء: قيصر بورجيا، الملك الفرنسي لويس الثاني عشر، الإمبراطور الروماني المقدس ماكسيميليان الأول. ومن خلال ما لقيه من حين إلى آخر من إذلال من جانب ممثلي القوى الكبرى، عرف ما لفلورنسا من قيمة ضئيلة في الأوضاع السياسية

الجديدة وفي النزاعات المسلحة في بداية القرن السادس عشر. وبفضل فضوله الدائم، استطاع أيضًا أن يعرف أن فلورنسا والدول الكبرى الأخرى تتسابقان من أجل أن تصبح أكثر قوة؛ فبدأ يشن نقدًا صريحًا لا هوادة فيه على الأوضاع السياسية الفلورنسية؛ نقدًا غالبًا ما كان مدعومًا بأمثلة من التاريخ الروماني تم اختيارها بدقة لإلقاء الضوء على الحاضر. وإيمانًا منه بأن جيشًا من المواطنين هو وحده الجيش الذي يمكنه أن يحارب بإخلاص حتى النهاية، قام ماكيافللي، وهو يعد للجنة جديدة، لجنة التسعة، بإنشاء فرقة عسكرية للدفاع عن فلورنسا، ليراها وهي تسحق ذات يوم في مواجهة جنود يدمرون نظام حكم سوديريني ويعيدون آل مديتشي إلى السلطة عام ١٥١٢^(٥). ونتيجة لشكوك التآمر التي حامت حوله ضد آل مديتشي العائد إلى الحكم، تم عزل ماكيافللي، بعد اعتقاله وتشويهه، وإبعاده عن المدينة ليقوم في مزرعته الريفية الصغيرة الواقعة على بعد أميال قليلة؛ حيث بدأ يعاني من جديد من رغبته في العودة إلى العاصمة وإلى العمل السياسي. وبعبارة أخرى، فإن حياة ماكيافللي السياسية بدأت وانتهت بالغزو والثورة. ولا عجب في أنه كان يرى النظام السياسي باعتباره نظامًا شديد الهشاشة ويصر على أن حمايته فوق مستوى العقلية الحذرة المتمسكة بالقديم.

هذه هي الظروف التي اعتاد فيها ماكيافللي الكتابة إلى فيتوري، رسالة بعد رسالة، متناولاً المعنى السياسي للوقائع الحديثة ومصرًا من ناحيته، كلما كان فيتوري يصر، على انعدام وضوح الرؤية عند الأمراء^(٦). غير أنه كان، في الواقع، يمتلك ناصية فن قراءة أفعال الأمراء ونياتهم. وبعد أن استبد به اليأس لاستبعاده من عالم العمل

السياسي، وبدافع من الآمال التي تعلق بها في أن تعيده مهاراته السياسية إلى موقع السلطة التي فقدوها، اتجه ماكيا فللي إلى الثقافة الكلاسيكية والتجربة السياسية لمدينته الأم، واثقاً من أنه سيجد فيهما المنابع الفكرية التي كان يبحث عنها. وفي أكثر هذه الرسائل شهرة، قدم ماكيا فللي وصفاً مستفيضاً لواقع أنه وجد نفسه مضطراً إلى العيش أسير القيل والقال من جانب القرويين، باذلاً وقته في صيد السمك ولعب القمار، وفي محاورة جيرانه السذج والمساكين. وحاول أن يحوّل النعمة إلى نعمة بالبرهنة على أن بمقدوره أن يتجاوز هذه المحن بممارسة مهاراته كمحلل للماضي والحاضر:

في المساء، أعود إلى منزلي، وأدخل مكتبي؛ أخلع عند العتبة ملابسي العادية، المغطاة بالطين والوحل، وأرتدي الثياب الفخمة الفضفاضة؛ وبعد أن أصبح مهندماً، ألج قصوراً منيفة لرجال أجلاء يلاقوني بكل ترحاب، وهنا أذوق طعاماً لا يشاركني فيه أحد؛ طعاماً ولدت من أجله؛ ولا أخجل هنا من الحديث إليهم؛ لا أخجل من سؤالهم عن أسباب أفعالهم؛ فيجيبون عليّ بكل ما أثر عنهم من إنسانية؛ ولمدة أربع ساعات لا أشعر خلالها بسأم، بل نابذاً أي بلوى، فلا أكون خائفاً من فقر ولا مرتجفاً من التفكير في الموت: أصير جزءاً لا يتجزأ منهم. وإعمالاً لما يقوله دانتي من أن المعرفة لا تكون موجودة من دون قدرة الذاكرة على حفظها، فقد قمت بتسجيل ما تعلمته من حديثهم، وألفت كتاباً صغيراً عن مبادئ الحكم أقلب فيه، بكل ما وسعني من عمق، الأفكار المتعلقة بهذا الموضوع، متناولاً ماهية الإمارة، وما أنواعها؟ وما طرق الحصول عليها؟ وكيف يمكن الحفاظ عليها؟ ولماذا يفقد الأمراء إماراتهم؟^(٧).

اتجه ماكيافلي إلى المنبع التقليدي للثقافة - قراءة الكلاسيكيات - ليس فقط بحثاً عما هو مختلف وغير مألوف، ولكن كشكل من أشكال التهور اليائس. لقد كان يأمل في أن يكون بوسعه بهذا العمل ليس فقط أن يوضح موقفه الشخصي، بل أن يدل على خبرته الفائقة، وأن يفوز بذلك بمنصب في حكومة مديتشي الجديدة، منصب يتيح لمواهبه أن لا تكون عرضة للصدا في عزلة ريفية. ولهذا، فقد أهدى كتابه إلى جوليانو مديتشي على أمل أن تلقى أفكاره صدًى عند «أمير جديد». وبعبارة أخرى، اعتمد ماكيافلي على منابع الموروث الهيوماني - معرفة الكلاسيكيات والفصاحة في التعبير - من أجل استعادة مكانته فيكون بإمكانه أن يتصدر الحياة السياسية التي كان يتطلع إليها أكثر من أي شيء آخر.

لأول وهلة، يبدو أن الكتاب الذي ألفه ماكيافلي لاستعراض مهارته الفائقة بوصفه محللاً سياسياً، كتاب لا يقل في تقليديته عن تلك المناهج التي اتبعها. فهناك هيومانيون كثر قبله، منذ عصر بترارك فصاعداً، تناولوا موضوع الأمير المثالي. لقد ناقشوا، مثل ماكيافلي، الطريقة التي ينبغي اتباعها في تلقين أمير من هذا النوع الخصال الأخلاقية والثقافية التي يكون في أمس الحاجة إليها، والطريقة التي ينبغي أن يتعامل بها مع رعاياه. وكتبهم متخمة، ككتاب ماكيافلي، بمثل كلاسيكية عن السلوك الخيّر والسلوك السيئ استقوها من كتاب التراجم والمؤرخين القدماء. والواقع أن عناوين كتاب الأمير - التي كتبها ماكيافلي باللغة اللاتينية بدلاً من الإيطالية التي كتب بها المتن، واستخدمها عند مناقشة موضوعات تقليدية مثل ما إذا كان ينبغي للأمير أن يطلب شيئاً حباً أو خوفاً من رعاياه - أعطت إشارات

واضحة لأي شخص واسع الإطلاع بأن ماكيا فللي وقراءه سيسيران على درب سبقهم إليه كثيرون آخرون.

غير أن ماكيا فللي أصر منذ البداية على جدة نهجة حتى فيما يتعلق بأكثر الأسئلة التقليدية التي طرحها. بدأت الرسائل الهيومانية المبكرة عن الأمير المثالي بمبادئ أخلاقية عامة - طبيعة الرجل، غاية الحكومة، ارتباطهما بالسعي إلى حياة فاضلة. وعلى خلاف ذلك، ادعى ماكيا فللي بكل جرأة أنه سيبحث في القضايا السياسية كما هي في الواقع. فقَسَّم كل الإمارات لفئتين، حديثة ووطيدة، وحدد، من دون أي مناقشة للمعايير، ما الذي يتعين على الأمير أن يفعله في كل حالة من أجل البقاء على عرش مملكته.

كانت الرسائل المبكرة تزعم أن الأمير يتعين عليه أن يكون فاضلاً: يسعى إلى «الفضيلة» بالمعنى التقليدي للكلمة. وقد طرح كتاب، مثل بارتولوميو بلاتينا وفرنشسكو باترتسي بوجه خاص، قوائم طويلة من الفضائل التي ينبغي على الأمير أن يراعها والرزائل التي ينبغي عليه أن يجتنبها، وقد دعم كل منهما طرحه بحكايات مطولة مأخوذة من المصادر الكلاسيكية. وقد بينت معالجاتهما وقائع معاصرة: فالكتاب الهيومانيون أقرّوا بأن الملوك سعوا وراء الشهرة في هذا العالم، كما سعوا إلى الحياة الأبدية للعالم الآخر، وامتدحواهم على دعمهم السخي للثقافة والتعليم وليس على بخلهم الشديد، وأبدوا في بعض الأحيان عنفاً سيكولوجياً كبيراً. وتحدث ماكيا فللي عن الفضيلة بصورة مستمرة. لكنه استخدم كلمة «فضيلة» بمعانٍ مختلفة، من بينها معنى المقدرة اللازمة، المستقلة عن أي أمور تخص الخير أو الشر، على مواصلة فرض السيطرة على الرعايا والممالك. وعلى

ذلك، فإن ماكيافللي اعتاد على أن يقول للقارئ: إن الخصال التي اعتبرت تقليدياً «فاضلة»، بالمعنى المسيحي أو الإقطاعي للكلمة، لم تكن فاضلة على الإطلاق حين تتوافر في أمير. فالسقاء، على سبيل المثال، كان إحدى الفضائل الأميرية الأكثر رسوخاً. لكنه إن مُدَّ على استقامته فلا بد أن يؤدي إلى التبديد، وإلى التباهي، وإلى ضياع ثروة الأمير وظلم رعاياه، ويؤدي في النهاية إلى أن يستخفوا به ويكرهوه. إن الأمير الذي يفهم «الفضيلة» على حقيقتها - بمعنى الخصال اللازمة لدوام حاله وسلطته - سيعلي «فضيلة» السقاء. لكن ماكيافللي دأب على تحريف القيم التي أكدت عليها وامتدحتها الكتابات الأساسية الخاصة بالنظرية السياسية^(٨).

ماكيافللي نفسه لفت انتباه القارئ إلى الاختلافات الجذرية بين نهجه ونهج من سبقوه. فالآخرون، وفق ما قاله في الفصل الخامس عشر، تناولوا الجمهوريات التي لم يكن لها وجود في أي مكان على وجه الأرض. لكنه، على خلاف ذلك، يناقش «الواقع الفعلي للأشياء» - الدول والحكام والرعايا كما هم في الواقع. وهو لن يطرح قواعد للسلوك الخيري بالمعنى المسيحي على سبيل المثال. فقد أكد أكثر من مرة على أن الأمير المسيحي حقاً، الذي يفى بالوعد حين لا يفى به الأمراء الآخرون، أو يسعى وراء حب رعاياه بدلاً من أن يجعلهم يخافونه، لا بد أن يفقد موقعه. وقد أكد شيشرون في مقال له بعنوان «عن الالتزامات»، وهو المقال الذي يستشهد به ويمتدحه الهيومانيون باستمرار، على أن الإنسان الفاضل لا بد أن يصل إلى غاياته بالحوار والإقناع وليس بالقوة أو المكر؛ تلك الأساليب الخليقة بالحيوانات - الأسد والثعلب على التوالي. ماكيافللي، على خلاف ذلك، يرى ضرورة أن يتصرف الأمير أحياناً كأسد قوي

وحاسم، وكثعلب ماكر ومراوغ في أحيان أخرى. وهو، بذلك، أكد اقتناعه بأن الأمير لا يسعه أن يتقيد بدواعي المثل الأخلاقية المعتادة إن أراد أن يؤدي دوره أداءً سليماً^(٩). وباختصار، واجه ماكيا قللي قارئه منذ البداية باعتقاده بأن الجهود المخلصة لامتلاك ناصية المعتقدات الأخلاقية التقليدية وتطبيقها لن تؤدي إلى ظهور حاكم مطاع. فالأمور السياسية لا بد أن تكون لها أحكامها الخاصة.

وكما أوضح فيليكس جيلبيرت^(١٠)، فقد أدخل ماكيا قللي هذه الأفكار الجذرية الجديدة إلى النظرية السياسية لحد كبير، وذلك بمجرد نقل التجربة الفلورنسية المتراكمة في الشئون السياسية من مجال المناقشات الحكومية للسياسة إلى مجال المناقشة العامة للفكر السياسي. لكن الحكومة الفلورنسية كانت قد بدأت منذ فترة طويلة تدعو معظم المواطنين من أصحاب النفوذ إلى حضور الاجتماعات كلما واجهت الدولة أزمة كبرى، وكان المشاركون في هذه الاجتماعات يستشهدون مثلهم مثل ماكيا قللي نفسه، بالسوابق الكلاسيكية والحديثة بصورة منتظمة وعلى أساس من الوقائع. وحاولوا أن يصوغوا قواعد قد تساعد على فهم التغيرات على النطاق السياسي الواسع، مثل القوى الكبرى التي شنت الحروب على شبه الجزيرة الإيطالية، وتساعد على فهم الهبات التي تحدث في عالمهم الفلورنسي، كلما أوجعت الثورات المتواصلة مدينتهم الحبيبة. ووضعوا أطراً لهذه القواعد بعبارات لها ما لصيغ ماكيا قللي من حدة ومضاء. ولعل الفلورنسيين كانوا يقولون حين يتهدهدهم خطر قوة أجنبية: «الكلاب التي تنبح لا تعض». وبوجه عام، فإن النبلاء الفلورنسيين عرفوا أن الخطوات السياسية في نجاحهم لم تعتمد على عون سماوي، بل على مدى مهارة كل شخص وعلى

الطرق التي اتبعها في حساب الاحتمالات. وفي عام ١٤٩٦، حين كانت فلورنسا معرضة للخطر نتيجة لاتباعها سياسة الولاء لفرنسا، لاحظ أحد المواطنين البارزين أن فلورنسا «في وسعها أن تقاوم إما بالقوة وإما بالعقل، ولكن لا يبدو أن في مستطاعنا أن نقاوم إيطاليا كلها اعتمادًا على القوة. وعلينا أن نختار البديل: «العقل». كان بوسع كتاب الأمير أن يصل منذ عهد بعيد إلى أرفف كتب أمراء عصر النهضة الذين لابد أن يكونوا قد تصفحوا صفحاته باحثين بشغف شديد عن أسرار العمل السياسي الفعال؛ فالواقع أن نبلاء فلورنسا كانوا يناقشون الأمور السياسية على أساس من الواقع مدركين تمامًا أن المصالح المختلفة للدول والأفراد، وليس ما نوهوا إليه من أفكار، هي التي أدت إلى معاركهم. ومنذ تسعينيات القرن الخامس عشر فصاعدًا، فإن خبرة التعامل مع حكام متهورين، مثل قيصر بورجيا، ومع حجاج الجيوش الفرنسية، جعلت الفلورنسيين يدركون أكثر فأكثر أن القوة قد تكون هي الحاكمة في شئون البشر. وقد كان النبلاء الأسبق يثنون على سياسة الإبطاء والتهدئة ويعملون على التوصل إلى تسوية. ومنذ تأليفه كتاب الأمير، كان مكيافللي مجرد واحد فقط بين فلورنسيين عديدين من «أنبياء القوة»^(١١). وبعبارة أخرى، فإن الأفكار والصور التي استخدمها مكيافللي لوصف الأمير الناجح جاءت كلها تقريبًا من اللغة السياسية للنخبة الفلورنسية.

على سبيل المثال، ليس هناك فصل من فصول الأمير أكثر شهرة من ذلك الفصل الذي يحاول فيه مكيافللي أن يحدد نطاق حرية البشر في القيام بعمل. وفي هذا الفصل، وفي مكان آخر أيضًا، يرى مكيافللي أن الثروة كانت لها دائمًا سلطات قوية على الإنسان. فهي، من حين لآخر، تكتسح، مثل نهر آرنو، كل شيء أمامها، وتدمر - كما

دمر الغزو الفرنسي - المؤسسات كافة التي استطاع الناس اختراعها لحماية أنفسهم وحفظ النظام. لكن استعدادات البشر في مواجهة القوة الهائلة للثروة في هذا السياق - مثل الهندسة الهيدروليكية - ليس في وسعها إلا الحد منها وشق قنوات لتقليل أضرارها وليس تفاديها تمامًا. وفي بعض الأحيان، فإن الثروة، مثل فاتنة متقلبة المزاج، تبدل أوضاع الملعب تمامًا، فتعمل على الإبطاء في التكتيك السليم، كما لو أن المرء، بحكم شخصيته، يتعين عليه، في هذا الوقت المحدد، أن يواصل اندفاعه بقوة ضد الخصوم كافة، وأن يدمر نفسه بذلك العمل. وبوجه عام، فقد أكد ماكيا قللي بشدة على أن الجريء الميَّت القلب أنجح من القلبي الضعيف الإرادة. وكتب يقول مستخدمًا العبارة التي غالبًا ما كانت رائجة في زمانه وما زالت ذائعة إلى الآن: الثروة امرأة في غالب أحوالها. ولذلك فهي تفضل من لديهم الجرأة الكافية لأخذها بعنف.

نصيحة ماكيا قللي الخاصة بطريقة التعامل مع الثروة من عندياته. لكنه، على مستوى اهتمامه العميق بقدرة الأوضاع العامة على صياغة الأحداث، وإحساسه بهشاشة القادة البشر وخططهم، يعتمد على المنابع الثقافية للطبقة الفلورنسية الحاكمة. لقد عرف أن النبلاء الذين لا تستند شهرتهم إلى مولدهم العريق ولا إلى شجاعتهم العسكرية، بل على البضائع والاستثمارات، يمكن أن يفقدوا كل شيء بين عشية وضحاها. وأبدى بعضهم - مثل الراعي العمراني العظيم جيوفاني روتشيلاي، أحد أعظم رعاة العمران - اهتمامًا يكاد يكون مفرطًا بهذا الأمر. واتخذ روتشيلاي سفينة متفخخة الأشعة كشعار له، إشارة إلى أن الثروة، التي قد تعني أيضًا ربحًا قوية، تدفع السفينة من ملكيته إلى ملكية شخص آخر. ووضع شعاره هذا على المشاريع

العمرائية العظمية التي كان يقيمها هنا وهناك، بما في ذلك واجهة كنيسة إستا ماريا نوفيللا، بمنظره ذي الأشعة الممتلئة بالرياح. وأقام روتشيللاي تمثالاً مماثلاً للثروة - أنثى عارية يستحيل كبح جماحها - على قاعدة أنيقة في فناء قصره الفلورنسي. وقد استشهد كتاب مثل ليون باتيستا ألبيرتي على الدوام بقدرة الثروة على تدمير العائلات الكبيرة وتعزيزها. وفي مجال بيان أن النجاح والفشل شيئان لا يتم اكتسابهما بحسن السلوك، بل شيئان يتم انتزاعهما بالقوة من بين يدي عالم لا يتسم بالعاطفية، استخدم ماكيافللي مجموعة راسخة من المجاز اللغوي والصور البيانية.

ومما يثير العجب أن شخصاً يركز دائماً على مقدرته على إعطاء تفسير صحيح وعميق للأوضاع السياسية، مثل ماكيافللي، يكتب، من حين لآخر، بما يوحي أنه قد استسلم لنوع آخر من الفكر مبين للفكر السياسي الفلورنسي. لكن كلاً من فيتوري، الذي تعاون معه ماكيافللي لأقصى حدود التعاون في الفترة التي مهدت السبيل إلى تأليف كتاب الأمير، وفرانتشيسكو جويتشيارديني، وهو صديق حميم آخر وناقد صارم لماكيافللي، يؤكدان أن صديقهما كان بارعاً إلى حد كبير. فالنيات السياسية غالباً ما كانت غامضة. وغالباً ما كانت للأحداث السياسية نتائج لا يمكن التكهّن بها. كما أن معظم الأوضاع - كما ذكر جويتشيارديني في كتابه الشهير «ذكريات» - كانت متباعدة تماماً في طبيعتها لدرجة كان من المستحيل معها الخروج بأي استنتاج واضح بشأن العوامل العامة التي أثرت فيها. فالعوامل السياسية، باختصار، لم يكن ممكناً التنبؤ بها أو السيطرة عليها، على الأقل ليس بالبساطة المدمرة التي بشر بها مؤلف الأمير.

وعلى الرغم من ثقته الكاملة بنفسه بصفته مستشاراً، فإن ماكيافلي لا يختلف اختلافاً كاملاً مع هذين الناقدين. فهو يسلم بأن الناس لهم سمات ثابتة على الدوام: شجاع أو جبان، مقدام أو رعديد، فالأوضاع قد يصلح لعلاجها أسلوب معين من العمل أحياناً، وقد يصلح أسلوب آخر في أحيان أخرى. لكن لا أحد يستطيع دائماً، أو أحياناً، أن يتزياً بزيٍّ واحد يصلح لأزمة تتغير وتبدل. إلى هذا الحد، كان رجال السياسة جميعاً محكوماً عليهم بالفشل أحياناً، حتى لو كانت السياسات الجريئة هي المفضلة بصفة عامة. ولم يكن ماكيافلي فلورنسياً أكثر من أي مكان آخر، إلا حين أصابه اليأس في أن يجد حكماً يمكنهم أن يضعوا ملاحظاته السياسية موضع التنفيذ.

على أن كتاب ماكيافلي، وفكره السياسي تجاوزاً أيضاً، تجاوزاً تاماً، تقاليد اللغة السياسية التي تعلمها جيداً. وقد استمر هذا التجاوز ليشكل تحدياً لجميع من تولوا ترجمة سيرته وفكره. فكما رأينا، كانت فلورنسا، في المقام الأول، جمهورية منذ عهد بعيد؛ وقد خدم ماكيافلي نفسه الجمهورية بكل إخلاص، بل حتى في الرسالة الاستهلاكية لكتاب الأمير، ذكر ماكيافلي أنه ناقش الحكومات الجمهورية في كتاب آخر - وهي ملاحظة تعتبر دائماً إشارة إلى كتابه «تعليقات حول ليفي» الذي حلل فيه تجربة روما القديمة لكي يستنبط أي المؤسسات بوسعها أن تحافظ على الجمهورية. أما في كتاب الأمير فقد شرح ماكيافلي كيف يمكن لحاكم مطلق أن يتولى أو يحافظ على الحكم في دولة كانت جمهورية من قبل. في كتاب «التعليقات» - وهو عمل يستعرض فيه محاضرات كان قد ألقاها أمام مجموعة من النبلاء والمثقفين في متنزّه حدائق قصر آل روتشيللاي

بعد سنوات قليلة من سقوط الجمهورية - حاول ماكيافلي أن يشرح كيف نجح الرومان في إنشاء دولة لها ملامح شعبية قوية؛ دولة دافعت عن وجودها لقرون طويلة. وبرغم أن تحليل ماكيافلي للسياسة الجمهورية كان واقعيًا وعمليًا، كما فعل في كتابه عن الأمراء، فإن كتابه الأخير ينم عن تفضيله الحاسم للحكومة الشعبية، وعن إيمانه التام بإخلاص الشعب وطهره، وهو ما يبدو أنه لا يتفق مع تحليله الصارم حول جمهور متردد يسهل خداعه، وهو الجمهور الذي يشكل الدعامات الداعمة لوصاياه الخاصة بسلوك رائع يليق بالأمراء. وقد حاول عديد من الباحثين، بدرجات متباينة من التفوق، أن يوفقوا بين الكتابين، وأن يبرهنوا على أن أحدهما هو فقط الذي يعبر عن رأيه الحقيقي. لكن جميع مثل هذه المحاولات تظل، على أي حال، غير حاسمة. الواقع أن طبيعة الأهداف الذاتية عند ماكيافلي - والطرق التي اتبعها هو نفسه في مجال المقارنة والموازنة بين الكتابين - تظل مثيرة للجدل. ومن أراد أن يدرس التطور الفكري عند ماكيافلي في أبعاده المختلفة - والطرق التي اتبعها ماكيافلي في مجال المقارنة والموازنة بين الكتابين - ينبغي عليه، أولاً وقبل كل شيء، أن يوجد تفسيراً لمقصد هذا الخادم المخلص للجمهورية من تمجيده للاستبداد^(١٢).

في تضايف كتاب الأمير، يضع ماكيافلي على عاتق قرائه تحديات تتعلق بمشاكل التأويل. فقد أكد، على النحو الذي يدركه جميع قراء كتابه من فورهم، أن الأمير ينبغي عليه أن يستخدم ما يعن له من الأساليب التكتيكية اللازمة لضمان سيطرته على الدولة - حتى الوحشية منها. فأساليب الإرهاب؛ واستخدام الأتباع العتاة الذين يمكن التخلص منهم هم أنفسهم بكل وحشية بمجرد قيامهم

بعد سنوات قليلة من سقوط الجمهورية - حاول ماكيافللي أن يشرح كيف نجح الرومان في إنشاء دولة لها ملامح شعبية قوية؛ دولة دافعت عن وجودها لقرون طويلة. وبرغم أن تحليل ماكيافللي للسياسة الجمهورية كان واقعيًا وعمليًا، كما فعل في كتابه عن الأمراء، فإن كتابه الأخير ينم عن تفضيله الحاسم للحكومة الشعبية، وعن إيمانه التام بإخلاص الشعب وطهره، وهو ما يبدو أنه لا يتفق مع تحليله الصارم حول جمهور متردد يسهل خداعه، وهو الجمهور الذي يشكل الدعاية الداعمة لوصاياه الخاصة بسلوك رائع يليق بالأمراء. وقد حاول عديد من الباحثين، بدرجات متباينة من التوفيق، أن يوفقوا بين الكتابين، وأن يبرهنوا على أن أحدهما هو فقط الذي يعبر عن رأيه الحقيقي. لكن جميع مثل هذه المحاولات تظل، على أي حال، غير حاسمة. الواقع أن طبيعة الأهداف الذاتية عند ماكيافللي - والطرق التي اتبعها هو نفسه في مجال المقارنة والموازنة بين الكتابين - تظل مثيرة للجدل. ومن أراد أن يدرس التطور الفكري عند ماكيافللي في أبعاده المختلفة - والطرق التي اتبعها ماكيافللي في مجال المقارنة والموازنة بين الكتابين - ينبغي عليه، أولاً وقبل كل شيء، أن يوجد تفسيراً لمقصد هذا الخادم المخلص للجمهورية من تمجيده للاستبداد^(١٢).

في تضاعيف كتاب الأمير، يضع ماكيافللي على عاتق قرائه تحديات تتعلق بمشاكل التأويل. فقد أكد، على النحو الذي يدركه جميع قراء كتابه من فورهم، أن الأمير ينبغي عليه أن يستخدم ما يعن له من الأساليب التكتيكية اللازمة لضمان سيطرته على الدولة - حتى الوحشية منها. فأساليب الإرهاب؛ واستخدام الأتباع العتاة الذين يمكن التخلص منهم هم أنفسهم بكل وحشية بمجرد قيامهم

بتنفيذ المهام الإجرامية التي تم تكليفهم بها؛ وحتى ارتكاب جرائم القتل الجماعي ضد المعارضين - كل هذه الوسائل التي تمتلئ بها صفحات كتاب الأمير غالبًا ما يتم تصويرها باطمئنان ظاهر. بل جعل ماكيا فليلي من أحد أشد الحكام العلمانيين المرعبين في زمنه - قيصر بورجيا - صنفًا من أصناف الأبطال، وذلك ليس بسبب سلوكه الإداري الفاضل ولكن لمزجه الألمعي الرائع بين الأساليب التكتيكية؛ الأمر الذي جعل منه - تقريبًا - الحاكم المطلق لوسط إيطاليا. ومن حين لآخر، يبدو أن ماكيا فليلي يتباهى بالوحشية التي يصورها. لكن بعض القراء - لاحظوا أن ماكيا فليلي، بوصفه مبعوثًا خاصًا فوق العادة لقيصر بورجيا، كان يوجه له في الحياة الحقيقية نقدًا شديد اللهجة - يرون، رغبةً منهم في تجنبه مغبة اللاأخلاقية السياسية، أنه لم يكن يقصد على الأرجح تقديم تفسير جدّي بقدر ما كان يقصد طرح رؤية ساخرة شديدة المرارة للحياة السياسية المعاصرة له؛ تلك الحياة التي يمكن لقرائه أن يحلوا شفرتها. وقد تجاوب كثيرون جدًا، من عصر ماكيا فليلي إلى الآن، بطريقة مغايرة تمامًا، فتعاملوا معه باعتباره معلمًا عتيقًا للأخلاقية: باعتباره شخصًا يؤرخ كتابًا لنهاية الشكل القديم للحياة السياسية والفكر السياسي ولميلاد الحداثة بكل ما لمعايها من سمات مميزة. كما أن ماكيا فليلي نفسه، في أحوال مزاجية أخرى، أقر بأن الحاكم ليس بوسعه أن يذبح مواطنيه من دون موجب حتى إن بدا ذلك العمل جوهريًا. وكتب يقول: إن أجاتو كليس طاغية سرقوزة ما كان ليطلق عليه «فاضل» حتى إذا كانت سياساته ناجحة.

وكما أوضحنا فكتوريا كان^(١٣)، قد أكد ماكيا فليلي بهذه الصورة على تعقد الحياة السياسية والفكر السياسي وسيولتهما، وحاول أن يعلم قراءه لا ينبغي عليهم ألا يتطلعوا إلى أحكام إلزامية، بل يتعين

عليهم أن يقدّروا مواضع خطاهم بكل دقة كلما حاولوا اتخاذ موقف سياسي مختلف، وأرادوا تحديد متطلباته. وبتأكيد على أنه ما من شيء واحد وحيد يمكن أن نتحدث عنه باعتباره «الفضيلة» ونقتفي أثره في كل موقف، أصبح ماكيافلي المعلم السياسي لأوروبا. وقد تعلمت منه أجيال من القراء في القصور والجامعات كيف يكونون دقيقين عند اتخاذ القرارات السياسية وفق واقعية جديدة صلبة، وكيف يدركون تمامًا أن أي حاكم يأمل في البقاء حاكمًا ليس بوسعه تفادي بعض أشكال من الخداع.

وقد أعطى ماكيافلي اسمه لـ «ماكيافلي» ؛ ذلك المتأمر الذي اعتاد التلاعب بالآخرين في تراجيديات العصر اليعقوبياني، ولكنه أتاح أيضًا مبادئ «عقل الدولة» التي أصبحت أساس التعليم السياسي في أوروبا الحديثة^(١٤).

ولقد كره ماكيافلي «الأنبياء العزل» من أمثال سافونارولا، مع أنه هو نفسه لم يكن مسلحًا إلا بقلم حين أصبح نبي المفاهيم السياسية الجديدة. وأعطى شكلاً أدبيًا ثابتًا لا يغيب عن البال لرؤيته اللاأخلاقية للسياسة؛ تلك الرؤية الخالية من الرحمة التي غرسها منذ عهد بعيد أعضاء النخبة الفلورنسية. لكنه، في الوقت ذاته، أمار اللثام عن عيوب الرؤية المتوارثة، وكذلك عن عيوب الرؤية الشديدة المثالية التي سادت الأدب السياسي قبل عصره. ولا عجب في أن هذه الصورة التي رسمها للأمير، مثلها مثل صورة سافونارولا، مازالت تحتفظ بقدرتها على إثارة الدهشة وإشاعة الخوف وإعطاء الدروس.

هوامش المقدمة

- ١ - انظر: Donald Weinstein, Savonarola and Florence: Prophecy and Patriotism in the Renaissance (Princeton, 1970)
- ٢ - انظر، على سبيل المثال: Hans Baron, In Search of Florentine Civic Humanism (Princeton, 1988)
- ٣ - للمزيد عن هذه الأشياء كما شوهدت في فلورنسا، انظر: Mark Phillips, The Memoir of Marco Parenti: A Life in Medici Florence (Princeton, 1987)
- ٤ - انظر: Weinstein.
- ٥ - انظر سيرة ماكياڤلي في: Robert Black, "Machiavelli, Servant of the Florentine Republic", Machiavelli and Republicanism, ed. G. Bock, Q. Skinner and M. Viroli (Cambridge, 1990), 72-8
- ٦ - انظر تحليل جون ناجمي John Najemy الدقيق Between Friends: Discourses of Power Desire of في كتاب 513-of 11515 the Machiavelli-Vettori Letters (Princeton, 1993).
- ٧ - The Portable Machiavelli, ed. and tr. P. Bondanella and M. Musa (Penguin, 1979), 69
- ٨ - Felix Gilbert, "The Humanist Concept of the Prince and The Prince of Machiavelli", History: Choice and Commitment (Cambridge, Mass., and London, 1977), 91-II4
- ٩ - Marcia Colish, "Cicero's De officiis and Machiavelli's Prince», Sixteenth Century Journal 9 (1978) 91-4.
- ١٠ - F. Gilbert, Machiavelli and Guicciardini: Politics and History in Sixteenth-Century Florence (Princeton, 1965), part 1

١١ - المرجع السابق.

١٢ - مازال أفضل مدخل إلى هذا الموضوع العريض هو كتاب كونتين إسكينر:

Quentin Skinner, *Foundations of Modern Political Thought* (Cambridge, 1978), vol.1

١٣ - Victoria Kahn, *Machiavellian Rhetoric: From the CounterReformation to Milton* (Princeton, 1994).

١٤ - المرجع السابق.

نص الأمير

خطاب من ماكيا للي إلى لورنتسو الأعظم

ابن بيير ودي مديتشي

اعتاد الذين يخطبون ود أمير من الأمراء أن يهدوه أشياء يعدونها من أنفس النفائس، أو يعلمون أنها تطيب له بالذات. وعلى ذلك يتلقى الأمراء غالبًا الخيل، والأسلحة، واللباس الموشى بالذهب، والجواهر، وما شاكل ذلك من الحلي التي تليق بسموهم. وحين رغبت في أن أقدم إلى سموكم دليلًا متواضعًا على ولائي، لم أستطع أن أجد شيئًا أعز به، أو أعتبره ذا قيمة، من بين ما تملك يداي، مثل تلك المعرفة بأعمال عظماء الرجال التي اكتسبتها خلال خبرتي الطويلة للأمور المعاصرة، ودراستي المتواصلة للعالم القديم؛ لقد تأملت فيها مليًا، ومحصلتها طويلًا. وهأنذا أقدم لسموكم الآن صفوتها في هذا الكتيب.

ومع أنني أعد هذا المؤلف غير جدير بقبول سموكم، إلا أن ثقتي في رقة شمائلكم تجعلني على يقين من قبولكم له قبولًا حسنًا حين تعلمون أنه ليس في طاقتي أن أقدم لكم هدية أعظم من أن أتيح لكم أن تفهموا في وقت قصير جميع ما درست في سنين طويلة، وأنا أعاني الحرمان والشدائد. ولم أحسن كتابي بعبارات طنانة،

أو بألفاظ رنانة، أو بأي زخرف مما يسعى به كثير من الكتاب إلى تحسين مؤلفاتهم؛ لأنني لا أرغب في شرف له سوى ما تستحق جدة مادته، وجدية موضوعه. وقد يبدو مؤلفي غرورًا من جانب رجل بسيط خامل يحاول أن يناقش حكم الأمراء ويوجهه؛ ولكنني أظن أن من الواجب أن يكون المرء أميرًا لكي يعرف طبيعة الشعب معرفة كاملة، وأن يكون واحدًا من الشعب لكي يعلم طبيعة الأمراء. والحال تمامًا كحال الفنانين الذين يصورون المناظر الطبيعية يقفون في أسفل الوادي ليتأملوا طبيعة الجبال والنجاد، ولكي يتأملوا السهول يقفون عاليًا فوق الجبال.

ولذا أجزى لنفسي أن تعتقد أن سموكم سوف يتناول هذه الهدية البسيطة بنفس الروح التي أبعث بها إليكم. وإذا قرأ سموكم الكتاب بامعان، ونظر إليه بعين الاعتبار فسوف ترون رغبتني الحارة في أن تنالوا تلك العظمة الممكنة التي يعدكم بها حظكم وصفاتكم الأخرى. وإذا نظر سموكم من عليائه إلى أماكن أخرى متواضعة فإنكم تلمسون كم أعاني من الحظ القاسي دون استحقاق.

الفصل الأول

في أنواع الحكم المختلفة ووسائل إقامتها

إن جميع الدول والسيادات التي خضع لها البشر، وما زال، إما جمهورية وإما ملكية. والملكيات، إما وراثية فيها حكام من أسرة بعينها منذ سنين طويلة، وإما ملكية قامت حديثاً. وهذه إما جديدة تماماً كمملكة ميلانو في عهد فرنسيسكو سفورتسا Francesco Sforza وإما كأجزاء جديدة تضاف إلى ممتلكات الأمير الموروثة ويلحقها بها، كمملكة نابولي في عهد ملك إسبانيا. والممتلكات التي اكتسبت بهذه الطريقة إما أنها قد ألغت حكم أمير آخر فيما سبق، وإما كانت ولايات حرة، ويلحقها الأمير بممتلكاته، إما بقوة أسلحته هو، وإما بقوة أسلحة غيره، وإما يسقطها في يده حسن الطالع، وإما القوة.

الفصل الثاني

في الإمارات الوراثية

لما كنت قد عالجت الجمهوريات معالجة تامة في موضع آخر، فلن أتحدث عنها هنا، ولن أعالج الآن سوى الأنواع المتباينة التي سبق أن تحدثت فيها كيف يمكن أن تحكم وأن تصان. وعلى ذلك أقول: إن الصعوبة في المحافظة على الدول الوراثية التي ألقت حكم أسرة حاكمة أقل بكثير منها في حكم الملكيات الجديدة، لأنه يكفي ألا نتجاوز أوضاع السلف، وأن نتهياً للطوارئ المقبلة ومثل هذا الأمير، ولو فرض أن كانت قدرته عادية، فسوف يستطيع على الدوام أن يصون ملكه بهذه الطريقة، إلا إذا جردته منه قوة خارقة مفرطة. وحتى لو حدث هذا الأمر، ففي مقدوره أن يستعيده فيما بعد حين يقع أقل طارئ سيئ للمحتل الجديد.

ولدينا مثال لذلك في إيطاليا هو دوق فرارا الذي استطاع أن يصد غارات البنادقة عام ١٤٨٤، والبابا يوليوس عام ١٥١٠، لالسبب سوى قدم أسرته في هذه الدوقية؛ لأن الأمير الشرعي أقل حاجة وسبباً من غيره لإلحاق الأذى برعيته. ومن هنا يجب أن يكون محبوباً أكثر منه. ومنطقياً لا بد أن يميلوا إليه بطبيعة الحال إذا لم تجعله رذائل

خارقة بغيضاً، وسوف تضيع ذكريات ما استحدثت وعللها بتقادم
سني حكمه، حيث إن التغيير مرة يترك دائماً الطريق ممهداً لإدخال
تغيير آخر.

الفصل الثالث

في الإمارات المختلطة

ولكن الصعوبات توجد حقيقة في الملكية الجديدة. فأولاً، إذا لم تكن جديدة تماماً، ولكنها، كما كانت جزءاً من دولة مختلطة، فإن اضطراباتهما تنبجس أولاً من صعوبة طبيعية توجد في جميع الممتلكات الجديدة؛ لأن البشر يغيرون برغبتهم الحكام؛ أملاً في تحسين أحوالهم. وهذا الاعتقاد يجعلهم يشهرون السلاح ضد حكامهم الذين خدعوا فيهم؛ لأن التجربة تثبت فيما بعد أن حالتهم قد انتقلت من السيئ إلى الأسوأ. وهذا نتيجة لعدة أخرى طبيعية جداً، وهي الضرر الذي لا بد منه يقع من جنود الأمير الذي تولى عليهم، ومن عدد لا حصر له من الأضرار الأخرى التي نتجت عن احتلاله.

وعلى ذلك تجد أن جميع هؤلاء الذين أسأت إليهم باحتلال تلك الولاية أعداء لك، ولا تستطيع أن تحافظ على صداقة أولئك الذين قدموا إليك يد المساعدة في الحصول عليها؛ لأنك لن تقدر على أن تحقق ما يتوقعونه منك، أو أن تتخذ معهم إجراءات شديدة؛ لأنك مدين لهم بالمعروف. ولذلك، ومهما كانت جيوشك قوية، فأنت في حاجة إلى أن يناصرك السكان حتى تمتلك الولاية. ولهذه الأسباب فقد لويس الثاني عشر ملك فرنسا ميلانو في الحال بالرغم من أنه

استطاع احتلالها دون عناء؛ كانت قوات لدوفيكو Ludovico وحدها كافية لأن تأخذها منه في المرة الأولى؛ لأن أهلها الذين فتحوا أبوابهم لملك فرنسا راغبين ضاقوا ذرعًا بحكم أميرهم الجديد، حين وجدوا أملهم العزيز وقد خاب، ولم ينالوا الفوائد التي تطلعوا إليها.

حقًا، إن الأقاليم التي تشق عصا الطاعة يصعب ضياعها مرة أخرى بعد استعادتها من جديد؛ لأن الحاكم يكون حينئذ أشد رغبة في تأمين مركزه بمعاقبة المعتدين، وكشف الشكوك، وتقوية نقط ضعفه. ولذا فعلى الرغم من مجرد ظهور شخص مثل دوق لدوفيكو على الحدود كان هذا كافيًا ليتسبب في ضياع ميلانو من فرنسا في المرة الأولى. ولم يكن فقدان سيطرتها عليها في المرة الثانية ممكنًا إلا حينما كانوا يقفون كافة ضدها، وبعد أن هزمت جيوشها وطردت من إيطاليا. وكان هذا نتيجة للعلل التي سبق أن ذكرناها، ومع ذلك أخذت منها في كلتا المرتين. ولقد سبق أن ناقشنا الأسباب العامة لضياعها منها في المرة الأولى منذ برهة وجيزة، ولا يبقى الآن للنظر سوى معرفة أسباب الهزيمة الثانية، وما الوسائل التي كان يمكن بها لفرنسا أن تتجنب تلك الهزيمة، ولم يتخذها ملك فرنسا، وكان يمكن لحاكم آخر أن يتذرع بها في هذا الموقف. وعلى ذلك لنلاحظ أن تلك الولايات التي كانت عند الضم متحدة مع ولاية لها وجود سابق إما أنها تشترك معها في الجنسية واللغة نفسيهما، وإما لا تشترك. وفي الحالة الأولى يكون الاحتفاظ بها يسيرًا جدًّا، وبخاصة إذا لم تكن قد ألقت الحرية. ولكي نملكها بسلام يكفي أن تمحي من الوجود أسرة الحكام الذين سبق أن حكموها؛ لأن غير هؤلاء يستقرون بهدوء في ظل حكاهم الجدد ما لم تضطرب حالتهم القديمة،

ولم يكن ثمة اختلاف في العادات، كما شوهد في حالة بورغانديا Burgundy، وبريتانيا Brittany، وجاسكونيا Gascony ونورمانديا Normandy، التي اتحدت مع فرنسا زمنًا طويلًا جدًا. ومع أنه قد يكون ثمة اختلاف بسيط في اللغة، إلا أن عادات الشعب متشابهة، ويمكن أن تسير معًا سيرًا حسنًا. ويجب على كل من يحصل على ملك مثل هذه الأقاليم، ويريد أن يحتفظ به، ألا ينسى أمرين: الأول، أن يعفى الزمن على دم حكامهم القدامى. والآخر، ألا يقوم بأي تغيير في قوانينهم أو ضرائبهم، وبهذه الطريقة سوف تتحد الأملاك الجديدة مع القديمة وتكون ولاية واحدة في وقت قصير جدًا.

ولكن حين نستولي على ممتلكات في منطقة تختلف معنا في اللغة، والقوانين، والعادات، فإن الصعوبات التي لا بد من التغلب عليها عظيمة، ونحن في حاجة إلى حسن طالع كبير وبقطة عظيمة لكي نحفظ بها، وإقامة الحاكم الجديد فيها من أكد الوسائل وأحسنها لذلك. وهذه الوسيلة قد تجعل الامتلاك أكثر سلامة ودوامًا؛ وهذا ما فعل الأتراك في بلاد الإغريق. فعلى الرغم من جميع الوسائل الأخرى التي اتخذها السلطان للاحتفاظ بتلك الولاية لم يصبح ذلك ممكنًا له إلا حينما ذهب وعاش هناك. فحين يكون الأمير في المكان المقصود يستطيع أن يرى القلاقل وهي تظهر، ويمكن علاجها بسرعة. ولكن حين يعيش بعيدًا يسمع عنها فحسب عندما لا يعود لها علاج. وفضلاً عن ذلك، فإن رجاله الرسميين لا ينهبون البلاد؛ لأن الرعايا يمكن أن يرضيهم اتصالهم المباشر بأميرهم؛ وحين يرغبون في الولاء له يكون لديهم سبب أقوى لمحبهته. وإذا كان لهم ميل آخر فسوف يكون لديهم علة كبرى لكي يهابوه. كما أن إقامته ستقلل من أن تميل دولة

خارجية إلى غزو تلك الولاية، حتى إنه كلما طالت إقامته فيها صعب جدًا تجريده منها.

والعلاج الآخر، وأحسن العلاجين، هو إقامة مستعمرات في مكان أو مكانين من تلك الأمكنة التي هي مفاتيح للبلاد؛ لأنه لا بد من أحد أمرين، إما أن نفعل ذلك، وإما أن نحفظ بقوة مسلحة كبيرة. إن المستعمرات سوف تكلف الأمير قليلًا؛ فهو يستطيع من جانبه، بتكاليف بسيطة، أو من دونها، أن يرسل ويحتفظ بالمستعمرات. وهو بهذا لا يضر سوى أولئك الذين قد أخذت منهم أراضيهم ومنازلهم وأعطيت للسكان الجدد، وهؤلاء لا يكونون سوى نسبة ضئيلة من الولاية؛ والذين قد أصابهم الضرر، لا يمكن أن ينالوه بأذى، فهم يظلون فقراء مشتتين، وغير هؤلاء، من السهل تهدئتهم جميعًا. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن من لم يصبهم الضرر يخافون أن يصيبوه بأذى خشية أن يعاملوا معاملة أولئك الذين قد جردوا من أملاكهم. وقصارى القول، لا تكلف هذه المستعمرات شيئًا، وهي أكثر ولاء، وأقل ضررًا؛ والفئات التي قد نالها الضرر عاجزة عن أن تقوم بما يؤذيكم، فهم فقراء مشتتون كما أوضحنا. لأنه يجب أن نلاحظ أن الرجال يجب أن يعاملوا معاملة رحيمة، أو أن يحقوا محققًا تامًا؛ فهم يثأرون لأنفسهم للإهانات التافهة، ولكنهم لا يستطيعون الانتقام للكبير منها. ولذا فإن إهانتنا لإنسان لا بد أن تكون إهانة تغنيانا عن أن نخشى معها انتقامه. ولكن إذا احتفظ الحاكم بحامية بدلًا من سكان المستعمرات، فسوف ينفق على الحامية أكثر من ذلك كثيرًا، ويستهلك جميع موارد هذه الولاية في حراستها حتى تنجم الخسارة عن الاستيلاء عليها. ويضاف إلى ذلك، أن ضرر الحامية كبير؛ لأن كل فرد في تلك الولاية تؤذيه عسكرة الجيش فيها. ولما كانت هذه مضايقة للجميع، فإن كل فرد في الولاية يصبح عدوًا، وهؤلاء أعداء

قادرون على الإضرار بك، فهم لا يبرحون منازلهم الخاصة، على الرغم من أنهم مغلوبون. ولهذه الأسباب تكون المستعمرات مفيدة من جميع النواحي على قدر ما تكون الحامية عديمة الفائدة.

وزيادة على ذلك، ينبغي لحاكم إقليم أجنبي، كما قررت أن يتزعم جيرانه الضعفاء ويدافع عنهم، وأن يعمل على إضعاف جيرانه الأقوياء، وأن يحذر من أن يغزوهم أجنبي أقوى منه؛ وسوف يكون الأمر دائماً أن غير الراضين سيدعون للتدخل إما بسبب الطمع وإما الخوف، كما رأينا حين استدعى الإيتوليون Aetolians الرومان إلى بلاد الإغريق. إن أي ولاية دخلها الرومان كان بناء على طلب السكان. والقاعدة هي أن الأجنبي القوي حين يدخل إقليمًا يصبح جميع الضعفاء أتباعاً له، وهم مدفوعون في ذلك بالحق على أولئك الذين يحكمونهم، حتى إنه لا يتكبد أي عناء لكي يضم إلى جانبه هذه القوى الصغيرة؛ لأنها جميعاً تنضم برغبتها إلى قوات الولاية التي قامت بالاستيلاء. وليس عليه سوى أن يحترس من أن ينالوا سلطاناً مفرطاً وقوة. وبمناصرتهم وبقواته يستطيع أن يسحق الأقوياء منهم، ويظل هو فيصل تلك المنطقة في جميع الأمور. إن من لا يحسن الحكم بهذه الطريقة سرعان ما يفقد ما قد استولى عليه، وسوف يلاقي صعوبة وعناء لاحتلها في أثناء السيطرة عليه.

لقد نهج الرومان دائماً على هذه السياسة في الولايات التي استولوا عليها. أنشأوا المستعمرات، وحافظوا على علاقات الصداقة مع الدول الصغيرة من دون أن يزيدوا قوتها، وأضعفوا الأقوياء، ولم يتيحوا للحكام الأجانب أن يحصلوا على نفوذ فيهم. وسوف أضرب مثلاً لذلك بولاية بلاد الإغريق كمثال فريد. لقد ارتبط الرومان بالآخيين Achaeans والإيتوليين بروابط الصداقة، ولم

تجعل خدماتهم للرومان يتيحون لهم أن يحصلوا على أقل توسع في إقليمهم، وأضعفوا مملكة مقدونيا، وطرّدوا أنتيوكس Antiochus، ولم تغرمهم بصدقة فيليب استمالاته لهم من دون أن يضعفوا نفوذهم، ولم تجعلهم قوة أنتيوكس يوافقون على أن يجيزوا له السيطرة على أي ولاية في تلك المنطقة.

لأن الرومان سلكوا في هذه الأحوال مسلك جميع الأمراء العقلاء، الذين لا يقف نظرهم عند الاضطرابات الراهنة فحسب، بل يحسبون حساب الاضطرابات المقبلة أيضًا. ولا يفترقون في اتقاء شرها؛ لأن المتاعب حين ترى مقدمًا يمكن علاجها بسهولة، ولكن إذا انتظرنا حتى تدهمنا، فالدواء يتأخر ميعاده، كما أن الداء يستعصى. ويحدث هنا ما يحدث في تلك الحميات غير المستقرة كما يقول الأطباء عند بدئها يصعب التفسير ويسهل العلاج، وفيما بعد تصبح معرفتها يسيرة ويصعب العلاج. وهذه هي الحال في شئون الدولة - حين نرى من بعيد الأخطار المتوقعة (بعد النظر من صفات الحكيم بمفرده) يسهل علاجها، ولكن حين ندعها تستفحل حتى يعرفها الجميع بسبب الافتقار إلى بعد النظر هذا، لا يوجد بعد أي دواء. ولذلك فإن الرومان حين كانوا يلاحظون الاضطرابات وهي ما زالت بعيدة استطاعوا دائمًا أن يجدوا العلاج لها، ولم يتيحوا لها قط أن تزداد لكي يتعاشوا بذلك حربًا؛ لأنهم عرفوا أن الحرب لا مناص منها، ولا يمكن تأجيلها إلا لصالح الطرف الآخر. ولهذا أعلنوا الحرب على فيليب وأنتيوكس في بلاد الإغريق حتى لا يضطروا إلى محاربتهم في إيطاليا، مع أنه كان في إمكانهم أن يتعاشوا في حينه هذه الحرب أو تلك، وهذا ما لم

يقع عليه اختيارهم ليقوموا به، فلم يأبهوا قط لأن يفعلوا بما يسمع كل يوم من أفواه حكمائنا، أي أن ننعّم بمزايا الإبطاء والتأخير؛ ولكنهم آثروا الاعتماد على قدرتهم وحكمتهم؛ لأن الزمن يجلب معه جميع الأمور الخيرة والشر على السواء.

ولكن لنرجع إلى فرنسا ونفحص ما إذا كانت قد قامت بأي أمر من هذه الأمور، وسأتحدث عن لويس دون شارل؛ لأنه يحسن بالمرء النظر إلى الإجراءات التي اتخذها الأول، فقد ملك في إيطاليا مدة أطول، وسنرى حيثئذ أنه قام بعكس جميع تلك الأمور التي يجب أن نقوم بها للاحتفاظ بالملك في ولاية أجنبية. لقد استدعى مطمع البنادقة دخول الملك لويس إيطاليا؛ وهؤلاء رغبوا في كسب نصف لمبارديا من وراء ذلك. إنني لن ألوم الملك على دخول إيطاليا، ولا على نصيبه منها؛ لأنه كان مضطراً إلى قبول أي صداقة أمكنه أن يجدها عندما رغب في أن يضع قدمه في إيطاليا، ولم يكن له أصدقاء فيها، بل كانت جميع الأبواب على العكس موصدة في وجهه جراء مسلك الملك شارل. وكان من الممكن أن تكفل مشروعاته بالنجاح السريع لو لم يرتكب فيما جرى عليه أخطاء أخرى.

لقد استعاد الملك مباشرة، بمجرد الاستيلاء على لمبارديا، السمعة التي أضاعها شارل. سلمت جنوا Genoa، وأصبح الفلورنسيون أصدقاء له، وتقرب إليه من دون استثناء مركز مانتوا Mantua، وأدواق فرارا، وآل بنتيفولي Bentivogli، وسيدة فورلي Forli، وسادة فائزا Faenza، وبيزاو Pesaro، وريميني Rimini، وكاميرينو Camerino، وبيومبينو Piombino، وأهل لوقا Lucca، وبيزا Pisa،

وسيينا Sienna. وكان في إمكان البنادقة حينذاك أن يروا آثار طيشهم، وكيف أنهم جعلوا الملك حاكمًا لما يربو على ثلثي إيطاليا ليكسبوا هم بذلك مدناً قليلة في لمبارديا.

وما كان أسهل أن يحافظ الملك على سمعته في إيطاليا لو راعى القواعد التي سبق الكلام عنها، وسيطر سيطرة محكمة وثيقة على جميع أولئك الأصدقاء الذين كانوا كثيرين وضعفاء؛ منهم من يخشى الكنيسة ومن يخشى البنادقة؛ ومن ثم كانوا مضطرين دائماً إلى أن يلتصقوا به، وكان يستطيع في سهولة بمساعدتهم أن يأمن جانب أي واحد منهم ما زال قوياً. ولكن لم يكد يدخل ميلانو حتى فعل العكس بأن ساعد البابا الإسكندر على احتلال رومانا Romagna، ولم يفتن إلى أنه أضعف نفسه بالسير في هذا الطريق، بأن تخلى عن أصدقائه، وعن لادوا به، وقوى الكنيسة بأن أضعاف سلطات زمنية أخرى إلى قوتها الروحية التي منها تستمد مثل هذا السلطان. ولما كان قد أخطأ أولاً اضطر إلى أن يستمر في الخطأ، وإلى أن يدخل إيطاليا عندما كان يوقف أطماع الإسكندر ويمنعه من أن يصبح حاكم توسكانيا. ولما كان غير راض عن إنماء قوة الكنيسة، وفقد أصدقاءه، وكان يطمع حينئذ في مملكة نابولي، اقتسمها مع ملك إسبانيا، وجلب حينذاك شريكاً له في إيطاليا حيث كان هو بمفرده الفيصل، حتى أمكن أصحاب المطامع الساخطون عليه في ذلك الإقليم أن يجدوا غيره يلودون به؛ وحيث كان يمكنه أن يترك في هذه المملكة ملكاً يخضع له، اغتصب ملكه لكي يأتي بغيره قادراً على أن يطرده هو منها.

إن الرغبة في التملك أمر طبيعي وعادي جداً. وعندما يملك أولئك الذين يستطيعون ذلك بنجاح يطرون دائماً ولا لوم عليهم، ولكن

العاجزين عن ذلك، بيد أنهم يرغبون فيه بأي ثمن، يرتكبون خطأ يستحق اللوم الشديد. فلو كان لفرنسا، على هذا الأساس، قدرة على الاستيلاء بقواتها الخاصة على نابولي، لكان ينبغي لها أن تفعل ذلك، وإلا فما كان يجب عليها أن تقتسمها. وإذا غفرنا لها اقتسام لمبارديا مع البنادقة؛ لأنه كان الوسيلة التي أتاحت لملك فرنسا أن يضع قدمه في إيطاليا، فإن الاقتسام الآخر يستحق اللوم؛ لأن الضرورة لم تبرره.

وهكذا ارتكب لويس خمسة أخطاء لقد دمر الدول الصغيرة، وزاد من نفوذ دولة واحدة في إيطاليا، وأتى في البلاد بأجنبي قوي جدًا، ولم يذهب ليعيش هناك بشخصه، ولم ينشئ أي مستعمرة. وما كان ليصيبه من الأخطاء ضرر لو لم يخطئ الخطأ السادس، وهو أخذ الولاية من البندقية. فلو أنه لم يقو الكنيسة، ولم يأت بالإسبانيين إلى إيطاليا، لكان كسر شوكتهم أمرًا ضروريًا وصحيحًا ولما كان قد اتخذ تلك الأساليب، كان عليه ألا يوافق على هدمهم أبدًا؛ لأن البنادقة لو كانوا أقوياء لأمكنهم أن يتصدوا لمحاولات الآخرين غزو لمبارديا. فمن ناحية، لم يكن يمكنهم أن يقبلوا أي إجراءات بها لا يحصلون عليها لأنفسهم. ومن ناحية أخرى، ما كان للآخرين أن يرغبوا في أخذها من فرنسا لكي يعطوها للبندقية، وما كانت لهم الشجاعة على مهاجمة الاثنين معًا.

وإذا كان لامرئ أن يقول: إن الملك لويس سلم رومانا إلى الإسكندر، ومملكة نابولي إلى إسبانيا؛ حتى يتحاشى بذلك حربًا؛ أردد عليه وأقول بناء على الأسباب التي قدمتها منذ مدة وجيزة: ينبغي للحاكم ألا يجيز أبدًا قيام اضطراب لكي يتجنب بذلك حربًا؛ لأن الحرب لا تتجنب بهذه الطريقة، بيد أن تأجيلها لا يضر أحدًا سواك.

وإذا زعم آخرون أن موقف الملك لويس يعزى إلى أنه وعد البابا بالقيام بتلك الحملة لحسابه في مقابل تطليقه الملك من زوجته، وإسناد الكاردينالية إلى روهان Rohan، أرد بما سوف أذكره فيما بعد عن وعود الأمراء، وكيف ينبغي مراعاتها. وهكذا أضاع الملك لويس لمبارديا؛ لأنه لم يراع أي حال من تلك الأحوال التي قد راعاها الآخرون الذين استولوا على الأقاليم ورغبوا في الاحتفاظ بها. وهذا ليس بأمر غريب، ولكنه منطقي وطبيعي. تحدثت في هذا الصدد مع الكاردينال روهان في نانتس Nantes وقالتين، كما هو الاسم المشهور لقيصر بورجاولد البابا، يحتل روماننا. قال لي الكاردينال: إن الإيطاليين لم يفهموا معنى الحرب. وأجبت بآن الفرنسيين لم يفهموا معنى السياسة؛ لأنهم لو كانوا قد فهموها لما أتاحوا للكنيسة أن تصبح قوية جدًا. وتدلنا التجربة على أن عظمة الكنيسة في إيطاليا، وفي إسبانيا أيضًا، تعزى إلى فرنسا، وكذلك يرجع إليها سقوط الكنيسة. ومن ذلك يمكننا أن نستخلص قاعدة عامة صادقة دائمًا، ولا تكذب إلا فيما ندر، وهي أن كل من يكون سببًا لأن يصبح غيره قويًا يهلك هو نفسه؛ لأنه يفعل ذلك إما عن طريق الحيلة، وإما عن طريق القوة، وهذان الأمران موضع شك من ارتفع إلى السلطان.

الفصل الرابع

لماذا لم تثر مملكة داريوس وقد احتلها الإسكندر

على خلفائه عقب وفاته؟

وعند النظر إلى الصعوبات التي تكون في السيطرة على ولاية الاستيلاء عليها جديد، قد يعجب البعض: كيف حدث أن أصبح الإسكندر الأكبر سيد آسيا في سنين قليلة، ولم يكدها يحتلها حتى عاجلته المنية، ولم تثر الولاية كلها على خلفائه، وكان المفروض عكس ذلك، واحتفظ خلفاؤه بملكها لأنفسهم، ولم يعانون صعوبات في ذلك سوى تلك التي ظهرت فيما بينهم بسبب مطامعهم الخاصة؟

وأجيب عن ذلك بأن الممالك التي عرفها التاريخ قد حكمت بطريقتين: إما حكمها أمير وأتباعه، يساعدونه في حكم المملكة كوزراء بفضله وإجازة منه، وإما حكمها أمير ونبلاء يتبوأون مراكزهم من دون مساعدة من الأمير، ولكن لقدمهم. ولمثل هؤلاء النبلاء ولايات، ومواطنون لهم خاصة يعترفون بهم سادة عليهم بطبيعة الحال. وللأمير في تلك الولايات التي يحكمها أمير وأتباعه سلطان أكبر من سلطان الأمير الثاني؛ لأنه لا يوجد فوقه سواء. وإذا كان يدان لغيره بالطاعة، فما ذلك إلا لأنهم وزراء الأمير ورجاله الرسميون، ولا أحد يحمل لهم وداً خاصاً بهم.

ولهذين النوعين من الحكم في عصرنا مثالان هما: حكومة تركيا، وحكومة ملك فرنسا. إن حاكماً فرداً يحكم المملكة التركية جميعها،

وغيره أتباع له. وهو يقسم المملكة إلى «سنجقيات»، ويرسل إليها حكامًا إداريين متباينين، ويغيرهم ويستدعيهم كما يروق له، ولكن ملك فرنسا يحيط به عدد كبير من النبلاء القدامى، يعترف لهم رعاياهم بحالتهم هذه، ويدينون لهم بالولاء، ولهم امتيازاتهم التي لا يقدر الملك على أن يحرمهم منها من دون أن يعرض نفسه للخطر. وكل من ينظر الآن إلى هاتين الدولتين يرى أنه يصعب الاستيلاء على دولة الأتراك، ولكن تسهل جدًا السيطرة عليها إذا هزمت. ومن ناحية أخرى، فإن قهر مملكة فرنسا أمر أسهل من ذلك من وجوه كثيرة، ولكن ثمة صعوبة كبيرة في السيطرة عليها.

وعلى صعوبة احتلال المملكة التركية هي أن المحتل لا يمكن أن يستدعيه إليها أمراء تلك المملكة، كما لا يلوح له أمل في أن تجعل حملته يسيرة ثورة يقوم بها أولئك الذين بجانب الحاكم، كما يتضح ذلك من الأسباب التي قدمناها. إن إفسادهم أمر صعب لكونهم جميعًا عبيدًا للسلطان وأتباعًا له. وحتى لو فرضنا أننا أفسدناهم فلا أثر كبيرًا يرجى من وراء ذلك؛ لأنهم لا يستطيعون أن يضموا الشعب إليهم، وذلك لما ذكرنا من أسباب. ولذا فعلى كل من يهاجم سلطان الأتراك أن يستعد لملاقاة قواته المتحدة، وأن يركن إلى قوته الخاصة أكثر مما يعتمد على الاضطرابات التي يقوم بها غيره. ولكن إذا كسر السلطان وهزمه تمامًا في حرب، فما من شيء ليخافه سوى أسرة الأمير، فلو محق هذه من الوجود فلا يعود هناك من يخشاه؛ لأن غيرهم ليس له سلطان على الشعب. ولما كان المنتصر لا يستطيع قبل النصر أن يأمل فيهم، فهو في حاجة إلى أن يخشاهم بعد النصر.

والحال عكس ذلك في الممالك التي حكمها مثل حكم مملكة فرنسا؛ لأن دخولها سهل يسير بأن يكسب الأمير بعض نبلاء المملكة في صفه؛ حيث إن هناك دائماً الساخطين، وأولئك الذين يرغبون في تجديد الأوضاع القديمة. إن هؤلاء يستطيعون أن يفتحوا لك الطريق، وأن يجعلوا لك النصر سهل المنال؛ وذلك للأسباب التي سبق أن قررتها. ولكن تظهر فيما بعد صعوبات لا نهاية لها لو أنك أردت الإبقاء على الملك، سواء من جانب أولئك الذين مدوا إليك يد المساعدة، أم ممن قد تعسفت معهم. ولن يكفيك أن تتخلص نهائياً من أسرة الأمير؛ لأنه يبقى هناك أولئك النبلاء الذين سيقودون الثورات الجديدة؛ ولما كنت لا تستطيع إرضاءهم، أو إفناءهم فإنك تفقد الولاية وما لاحت فرصة لذلك.

والآن، لو نظرت فيما كانت عليه طبيعة حكم داريوس فإنك تجدها شبيهة بمملكة الأتراك؛ ومن هنا كان على الإسكندر أن يقلبها تماماً، وأن يغزو المنطقة. وبعد هذا الغزو، وموت داريوس، استتبت أمور الولاية له؛ وذلك للأسباب التي سبق أن ناقشناها. ولو ظل خلفاؤه متحدين، لطاب لهم ملكها في سلام، ولما حدثت أي قلاقل في المملكة سوى ما أثاروه هم أنفسهم. ولكن من المستحيل أن نملك بمثل تلك السهولة بلاداً كفرنسا في نظامها الأساسي. وهذا هو سر الثورات، بين وقت وآخر، ضد الرومان، في إسبانيا، وفرنسا، وبلاد الإغريق؛ نظراً إلى الإمارات العديدة التي وجدت في تلك الولايات. لقد ظل الفتح الروماني مزعزع الأركان حتى محى ذكر هذه الإمارات تماماً، ولكن مع قوة الإمبراطورية ودوامها وامحاء هذا الذكر أصبح الرومان سادة لا منافس لهم. وحين دب بينهم الخلاف

كان في مقدور أي واحد منهم أن يعول على تأييد ذلك الجزء من المنطقة الذي أقام فيه سلطانه. ولم يعترف بالرومان كحكام هناك إلا بعد انقراض أسرة الأمراء القديمة. فإذا نظرنا إلى هذه الأمور، فليس لإنسان أن يعجب إذن للسهولة التي استطاع بها الإسكندر أن يسيطر على آسيا، ولا تدهشه الصعوبات التي لاقاها غيره في السيطرة على أقاليم فتحها، مثل بايروس Pyrrhus وكثير غيره؛ لأن العلة هنا ليست قدرة الفاتح تضاءلت أم عظمت، ولكن الأمر يتوقف على اختلاف الظروف .

الفصل الخامس

في طريقة حكم المدن والبلاد التي كانت تعيش قبل احتلالها
في ظل قوانينها الوطنية

وعندما تكون تلك الولايات التي قد استولينا عليها معتادة على الحياة الحرة في ظل قوانينها الخاصة، فثمة ثلاث طرق للسيطرة عليها. الأولى، أن يخربها الأمير. والثانية، أن يذهب ليعيش هناك بشخصه. والثالثة، أن يجيز لها أن تعيش في ظل قوانينها الوطنية، ويحصل منها على الجزية، ويقيم في داخل البلاد حكومة تتألف من عدد قليل يحافظ عليها صديقة لك. ولما كانت هذه الحكومة صنيعة الأمير، فهي تعلم أنها لا تستطيع أن تبقى من دون صداقته أو حمايته، ولن تدخر وسعاً للمحافظة عليهما. وزيادة على ذلك، فإنك إذا رغبت بطريقة أسهل في أن تحتفظ بمدينة اعتادت على الحرية، يمكنك أن تسيطر عليها بأسهل الطرق قاطبة، ألا وهي أن تجعل حكامها من مواطنيها.

ومثال ذلك الإسبرطيون والرومان. لقد سيطر الإسبرطيون على أثينا وطيبة Thebes بأن أقاموا في داخلها حكومة أقلية، ومع ذلك ضاعتا منهم. وخرب الرومان كابوا Capua، وقرطاجنة Carthage، ونومنتة Numantia؛ من أجل السيطرة عليها، ولكنهم لم يفقدوها. وأرادوا أن يسيطروا على بلاد الإغريق بطريقة تقرب من تلك التي بها

سيطر الرومان عليها، بأن تركوها حرة تحيا في ظل قوانينها الوطنية ، ولكنهم لم يوفقوا، حتى اضطروا، من أجل الاحتفاظ بها، إلى أن يخربوا مدناً كثيرة في تلك المنطقة. ويرجع ذلك إلى أنه لا توجد في حقيقة الأمر طريقة أكيدة للسيطرة عليها سوى تخريبها. ويمكن لكل من يصبح حاكماً لمدينة حرة ولا يخربها أن يتوقع منها تدميرها هي له؛ لأنها ستجد على الدوام الدافع إلى الثورة باسم الحرية، وباسم أوضاعها القديمة، وهذه أمور لا تنسى، لا بمرور الزمن، ولا بما يعود على أهلها من مزايا. ومهما فعل الحاكم، ومهما احتاط للأمر، فإنهم لن ينسوا ذلك الاسم، أو تلك الأوضاع، ولكنهم سيستجيبون لندائهم في الحال عند كل طارئ، كما فعلت بيزا بعد أن سيطر الفلورنسيون عليها واستعبدوها سنين طويلة . ولكن يستطيع الأمير أن يكسبهم في جانبه، وأن يقيم نفسه فيها آمناً، وذلك بصورة أيسر، حينما تكون هذه مدناً أو مناطق قد ألفت من قبل الحياة في ظل أمير قد انقرضت أسرته. لأنها ألفت الخضوع من ناحية، ومن ناحية أخرى، لا يمكنها، وقد فقدت أميرها القديم، أن تجمع كلمتها على اختيار واحد من أبنائها ليكون أميراً؛ فهي لا تعرف كيف تعيش حياة حرة. وعلى ذلك فهي، لهذه الظروف، أبطأ من غيرها في شهر السلاح عليه. ولكننا نجد في الجمهوريات حياة أعظم من هذه الحياة، ومقناً أشد، ورغبة في الانتقام أقوى. إنها لاتذر جانباً ذكرى حريتها القديمة، ولا تستطيع ذلك، ومن هنا فإن أوثق الطرق للسيطرة عليها هي : إما تخريبها، وإما الإقامة فيها.

الفصل السادس

في الولايات الجديدة التي اكتسبت
بأسلحة الأمير الخاصة وقدراته

لا عجب إذا كنت قد قدمت أمثلة عالية جدًا، سواء فيما يتصل بالأمير أو بالولاية، وذلك في أثناء الحديث عن الولايات الجديدة؛ لأن الناس يغلب عليهم السير دائمًا في الدروب التي طرقها غيرهم، وأن يجروا أعمالهم على جادة المحاكاة. ولما كان الرجل الحول القلب لا يستطيع دائمًا أن يقتفي تمامًا آثار الآخرين، ولا يتسنى له أن يبلغ امتياز أولئك الذين نقلدهم، فينبغي له دائمًا أن يسير على الدرب الذي طرقه عظماء الرجال، وأن يقلد أولئك الذين بلغوا أعلى درجات الامتياز، حتى إذا لم يبلغ درجتهم من العظمة، فإنه ينال منها، على أي حال، قدرًا ما. وسوف يصنع المرء صنع الرماة العارفين الذين يصوبون إلى نقطة أعلى بكثير من تلك التي يرغبون في إصابتها عندما تكون بعيدة جدًا، ويعرفون مدى إطلاق قوسهم للسهم، لا لكي يصيبوا بسهمهم هذا الارتفاع، ولكن ليصيبوا بوساطته الهدف المرغوب فيه.

وعلى ذلك أقول: تتفاوت السيطرة على زمام الأمور في الولايات الجديدة التي يوجد فيها أمير جديد تبعًا لقدرة من يستولي عليها. ولما كان بلوغ فرد عادي مرتبة الإمارة بالفعل يفترض فيه مقدمًا قدرة فائقة، أو حظًا سعيدًا، يبدو أن أحد هذين الأمرين أو الآخر قد يخفف

بدرجة معينة مصاعب جمّة. ومع ذلك، فإن أولئك الذين لم يركنوا إلى حسن الطالع إلا قليلاً صانوا أنفسهم على أحسن وجه. ويخفف أيضاً العبء عن الأمير ضرورة إقامته شخصياً في إقليمه الجديد، حين لا يكون له غيره. ولكن عندما نتحدث عن أولئك الذين أصبحوا حكماً بفضل قدراتهم الممتازة، لا بفضل الحظ، أعد أعظمهم جميعاً موسى Moses، وقورش Cyrus، ورومولوس Romulus، وتيسوس Theseus وأشباههم. ومع أن المرء لا ينبغي له أن يتحدث عن موسى، لا شيء سوى أنه رسول الله الذي عمل بما أمره به، إلا أنه يظل جديراً بالإعجاب، ولو لمجرد ذلك الفضل الذي جعله أهلاً لأن يكون كليم الله. ولكن إذا نظرنا إلى قورش وغيره الذين كسبوا الممالك وأرسوا قواعد فسوف نجدهم جميعاً يستحقون الإعجاب. وإذا اخترنا أعمالهم الخاصة ومناهجهم فلن تظهر مختلفة اختلافاً كبيراً عن أعمال موسى، بالرغم من أنه كان رسول الله. فإذا فتنا* حياتهم وأعمالهم فسوف نرى أنهم لم يدينوا بشيء إلى الحظ، ولكن الفرصة هي التي وهبتهم المادة التي صاغوها في الصورة التي رأوها مناسبة. فلو لم تكن تلك الفرصة لضاعت قدراتهم هباء، ولو لم تكن قدراتهم لأصبحت الفرصة من دون جدوى.

وهكذا كان من الضروري أن يجد موسى شعب إسرائيل عبيداً في مصر يضيّمهم المصريون؛ حتى يصبحوا على استعداد للسير خلفه لكي يتخلصوا من العبودية. وكان ضرورياً ألا يستطيع رومولوس البقاء في ألبا Alba، وأن يترك في العراق يوم ميلاده حتى يصبح ملك روما، ومؤسس تلك الأمة. وكان لابد من أن يجد قورش الفرس

ساخطين على إمبراطورية الميديين Medes، وأن يجدوا هؤلاء منحلين ومتخثين جراء السلم الطويل. ولو لم يكن تيسوس قد وجد الأثينيين مشتتين لما أمكنه أن يبين عن قدراته. إذن، لقد منحت هذه السوانح هؤلاء الرجال فرصتهم، ومكنتهم خصالهم العظيمة من الاستفادة منها؛ لكي يجعلوا أوطانهم كريمة عزيزة، ويزيدوها فلاحًا وسعدًا.

وأولئك الذين يصبحون كهؤلاء أمراء بتدريب قدراتهم يحصلون على ولاياتهم بصعوبة، بيد أنهم يحافظون عليها بسهولة. والصعوبات التي يلاقونها في ذلك ترجع، من ناحية، إلى القواعد والتعديلات الجديدة التي يضطرون إلى إدخالها لكي يقيموا ولايتهم بسلام، ويجب أن نعتبر أن ليس هناك ما هو أصعب من أن تبدأ نظامًا جديدًا للأمور ومن تنفيذه، ونجاحه مشكوك في أمره، ولا يوجد ما هو أخطر من تناوله. لأن للمصلح أعداء بين جميع أولئك الذين يفيدون من النظام القديم، ومن يؤيدونه (المصلح) تأييدًا فائرًا بين أولئك الذين قد يفيدون من النظام الجديد كافة. ويرجع هذا الفتور، من ناحية، إلى أنهم يخشون خصومهم الذين يكون القانون في صالحهم. ويعزى ذلك، من ناحية أخرى، إلى قابلية البشر لعدم التصديق؛ فهم لا يؤمنون بأي جديد إيمانًا صادقًا حتى يجربوه بالفعل. وعلى ذلك يهاجم المصلح بحماسة شديدة خصومه في كل فرصة بينما يدافع عنه سواهم دفاعًا فائرًا، حتى إنه يواجه الخطر العظيم بين هؤلاء وأولئك. ولذا فلا بد من أجل تحري الحقيقة تمامًا في هذه المشكلة أن نبحث فيما إذا كان يستطيع هؤلاء المجددون أن يعولوا على أنفسهم، أو

هم مضطرون إلى الاعتماد على غيرهم. وبعبارة أخرى نقول: هل من الضروري لهم لكي ينفذوا مارسموه أن يستميلوا غيرهم، أو هم يستطيعون القهر؟ وهم، في الحالة الأولى، لا يفوزون دائماً إلا فوزاً هزلياً، ولا ينجزون شيئاً. وهم لا يفشلون إلا فيما ندر حينما يكون في وسعهم الاعتماد على سلطانهم الخاص، واستخدام القوة. وعلى ذلك حدث أن انتصر جميع الأنبياء غير العزل. والسبب، بالإضافة إلى ما قيل، أن طبيعة البشر متقلبة، ومن السهل أن نستميلهم إلى أمر من الأمور، ولكن من العسير أن نبقي على إيمانهم هذا. ومن هنا لزم ترتيب الأمور بحيث يمكننا استخدام القوة لنكرهم على الإيمان ما ارتدوا عنه. لو كان موسى وقورش وتيسيوس ورومولوس عزلاً لما استطاعوا أن يجعلوا غيرهم يراعون دساتيرهم أمداً طويلاً، كما حدث في زماننا هذا للأخ جيرولامو سافونارولا Fra Girolamo Savonarola الذي فشل في شرائعه الجديدة فشلاً ذريعاً حينما أخذت جمهرة الناس تكفر به، ولم يكن لديه من وسيلة للإبقاء على المؤمنين في صفه، أو ليحمل من لم يؤمن به على الإيمان. ولذا يعاني أمثال هؤلاء الرجال صعوبة عظيمة في شق طريقهم، وجميع الأخطار التي يلاقونها تحقق بهم في الطريق، وعليهم أن يتغلبوا عليها بقدراتهم الخاصة. ولكن حينما تتم لهم الغلبة عليها، ويشرع القوم في تقديسهم، ويبطشون بأولئك الذين يحسدونهم، فإنهم يظلون أقوياء آمنين، سعداء كرماء.

وسوف أضيف إلى الأمثلة العالية السابقة مثلاً دونها، ولكن يمكن على أي حال، أن تجرى عليه المقارنة إلى حد ما، وسوف يستخدم مثلاً لجميع هذه الحالات. إنه هيرو السيراكوزي الذي أصبح أمير سيراكوزة بعد أن كان فرداً عادياً، من دون أي مساعدة من الحظ

سوى الفرصة. لأن أهل سيرا قوزة، وقد كانوا مضطهدين، اختاروه رئيساً لهم، وارتقى بقدرته من هذا المركز إلى مرتبة الإمارة. و«لم يكن ينقصه لكي يحكم، وهو ما زال فرداً عادياً، سوى المملكة»، كما قال عنه الكتاب. ألغى الجندية القديمة، وأقام أخرى جديدة، وتخلّى عن جميع الأحلاف وعقد غيرها. ولما أصبح له، على هذا الأساس، أصدقاء وجنود من اختياره الخاص، استطاع أن يشيد فوق هذه الأسس مطمئناً، حتى إنه عانى في الحصول على ولايته عناء كبيراً، بينما قاسى قليلاً في المحافظة عليها.

الفصل السابع

في الإمارات الجديدة التي اكتسبت بالحظ والسلاح الأجنبي

إن أولئك الذين يرقون من أفراد عاديين ليصبحوا أمراء لمجرد الحظ، لا يعانون عناء كبيراً في الصعود، لكنهم يقاسون كثيراً في توطيد ولايتهم. هم لا يقابلون في الطريق إلى الإمارة أي عقبات؛ لأنهم يطبّرون فوقها، ولكن تظهر جميع عقباتهم حينما يحتلون مكانهم. وأمثال هؤلاء هم الذين منحوا ولاية إما في مقابل مال، وإما بفضل هذا الذي يمنحها، كما حدث لكثيرين في بلاد الإغريق، في مدن إيونيا Ionia وهلسبونت Hellespont، الذين صنع منهم داريوس أمراء للسيطرة على هذه الأماكن من أجل سلامته ومجده. وأمثال هؤلاء أيضاً أولئك الأباطرة الذين رقوا من مواطنين عاديين إلى السلطان برشوة الجيش. وهؤلاء يعتمدون اعتماداً مطلقاً على حظ أولئك الذين يرفعونهم وإرادتهم الخيرة، وكلا الأمرين لا يدوم ولا يثبت بصورة مفرطة. إنهم لا يعرفون كيف يحافظون على ولايتهم، كما لا يكونون في موقف يصونونها فيه. فإذا لم يكن الواحد منهم فرداً ذا عبقرية عظيمة فلا يحتمل لذلك الذي عاش دائماً في مركز عادي أن يعرف كيف يأمر وينهي. وهم غير قادرين على المحافظة على أنفسهم لأنهم لا يملكون قوات صديقة لهم وموالية. وفضلاً عن ذلك، فإن الدول التي ترسي قواعدها سريعاً كجميع الأشياء الأخرى ذات البدايات والنمو السريع، لا تستطيع أن تتجذر بعمق، وتشعب

في أماكن رحبة حتى إن أول عاصفة تهب تدمرها، إلا إذا كان للفرد الذي وصل إلى الإمارة كما قلنا تلك العبقرية العظيمة التي تجعله قادرًا على أن يتخذ الخطوات العاجلة لصيانة ما قد رمى به الحظ في حجره، ثم يضع تلك الأسس التي يضعها غيره قبل أن يصبحوا أمراء.

وسوف أضرب هنا مثالين قد حضرا في الذاكرة لهاتين الطريقتين من طرق الوصول إلى الإمارة، أي بالقدرة أو بحسن الطالع، وهما مثالاً فرنشيسكو سفورتسا، وقيصر بورجا Cesare Borgia. أصبح فرنشيسكو دوق ميلانو بالوسائل المناسبة وبقدراته، بعد أن كان مواطنًا عاديًا؛ وصان بقليل عناء ما قد حصل عليه بعد صعباب جمّة. ومن ناحية أخرى، حصل قيصر بورجا، المشهور باسم دوق فالنتين، على الملك بفضل نفوذ أبيه، وفقده حين أفل ذلك النفوذ، وذلك على الرغم من أنه لم يدخر وسعًا في اتخاذ أي وسيلة أو جهد يقوم به رجل قادر حكيم لكي يوطد نفسه توطيدًا راسخًا في ولاية قد منحها إياه حظوة غيره وأسلحته. ويرجع ذلك إلى أن من لم يرس القواعد في البدء يستطيع أن يضعها بقدراته العظيمة فيما بعد، كما قلنا، على الرغم مما في ذلك من عناء عظيم لمهندس البناء، وخطر على البناء. وحيث لو نظر المرء بعين الاعتبار إلى الإجراءات التي اتخذها الدوق فسوف يرى أي أسس مكيّنة قد وضع لسلطانه المقبل، ولا أعد فحوصها غير لازم؛ لأنني لا أعلم مبادئ ينسج على منوالها أمير جديد أحسن مما نجد في أعمال الدوق. وإذا كانت الوسائل التي اتخذها غير ناجحة، فليس هذا لخطأ له، ولكن السبب هو الحظ المفرط في التعاسة، ولا شيء سواه.

حين أراد الإسكندر السادس Alexander VI أن يعلي من شأن ولده الدوق، كان عليه أن يلاقي صعابًا كثيرة جدًا عاجلة وآجلة. فأولًا، لم ير سبيلًا ليجعل قيصر حاكمًا لأي ولاية لم تكن ملكًا للكنيسة. وعرف أن دوق ميلانو والبنادقة قد لا يوافقون على محاولته أخذ مدن البابا؛ لأن فائزًا وريميني كانتا حتى ذلك الحين تحت حماية البنادقة. وزيادة على ذلك، رأى أن قوات إيطاليا العسكرية، وبخاصة تلك التي يستطيع أن يستخدمها، في أيدي من يخشون عظمة البابا؛ ولذلك لم يستطع الاعتماد عليها؛ لأنها كانت جميعًا تحت قيادة الأورزني Orsini وألكولونا Colonna وأتباعهما. ولذلك كان من الضروري له أن يجعل الحالة الراهنة تضطرب، وأن يثير الاضطرابات في الولايات الإيطالية لكي يضمن السيادة في جزء منها. وكان هذا الأمر يسيرًا؛ لأنه وجد البنادقة مدفوعين بدوافع أخرى قد استدعوا الفرنسيين إلى دخول إيطاليا، وهذا ما لم يعارضه فحسب، بل يسره بفسخ الزواج الأول للملك لويس. وهكذا دخل الملك إيطاليا بمساعدة البنادقة وموافقة الإسكندر. ولم يكد يصل إلى ميلانو حتى أخذ منه البابا جنودًا لحملته في رومانا التي أمكن فتحها بفضل صيت الملك وشهرته. ولما تم له الاستيلاء عليها على هذا النحو، وهزيمة الكولونا، عاقه عن الاحتفاظ بها والاستمرار في زحفه أمران. الأول، قواته التي شك في ولائها. والآخر، نية فرنسا. وبعبارة أخرى نقول: إنه خشي أن تتخلى عنه قوات الأورزني التي استخدمها، وهي لا تعوقه فحسب عن زيادة التوسع، بل قد تأخذ منه ما قد فتح حتى الآن. كما خشي من أن يأتي الملك الأمر نفسه. وكانت البيئة عنده على هذا بالنسبة إلى الأورزني، أنه بعد أن أخذ فائزًا أغار على بولونيا

فلاحظ تخلفهم. أما الملك، فقد فطن إلى نواياه حين استولى على دوقية أوربينو Urbino، وحمل على توسكانيا، وأوقفه الملك عن هذه الحملة. ومنذ ذلك الحين عزم الدوق على ألا يعود إلى الاعتماد على أسلحة غير أسلحته، أو يعول على حظ غير حظه هو. لقد كان أول ما قام به هو إضعاف حزبي الأورزني والكولونا في روما، بأن كسب في صفه جميع أنصارهما الذين كانوا أعياناً، وجعلهم أتباعاً له، بأن أجزل لهم العطاء، وعينهم في مراكز، وولاهم أعمالاً، كل على حسب قدره، حتى انقطعت صلاتهم بحزبيهم في بحر أشهر قليلة، والتفوا حول الدوق كل الالتفاف. وبعد ذلك انتظر فرصة تسنح لكي يسحق زعماء الأورزني، وكان قد بطش بزعماء الكولونا. وحين سنحت الفرصة استغلها استغلالاً مفيداً؛ لأن الأورزني حين رأوا أخيراً أن عظمة الدوق والكنيسة تعني سقوطهم دعوا إلى عقد ديت diet في ماجيوني Magione ببيروجينو Perugino وحينذاك اندلعت ثورة أوربينو، وحدثت اضطرابات في رومانا، وظهرت للدوق أخطار لا حصر لها، وتغلب عليها جميعاً بمساعدة الفرنسيين. وحين استعاد سمعته، لجأ إلى الخديعة، ولم يعد يعتمد على فرنسا، أو على قوات أجنبية أخرى لكيلا يجازف بنفسه بالتحالف معهم. أخفى أغراضه جيداً حتى سالمه الأورزني، ونزع شكوك ممثلهم السيد باولو Signor Paulo بكل أنواع الحفاوة؛ فقدم له اللباس، والأموال، والخيل، حتى أغرتهم سذاجتهم بالحضور إلى سنجاغليا Sinigaglia وأن يقعوا في يده لقد وضع الدوق أسساً قوية جداً لسلطانه، بأن تخلص نهائياً من هؤلاء الزعماء بهذه الصورة، وجعل أنصارهم أصدقاء له، واستولى على جميع رومانا مع دوقية أوربينو، وكسب ود السكان الذين أخذوا يحسون بمزية حكمه.

ولما كان هذا الدور جديرًا بمراعاة الآخرين، وحرى بهم أن ينسجوا على منواله، فلن أترك الحديث فيه. كان إقليم رومانا يحكمه، حين استولى عليه الدوق، حكام ضعفاء، وكانوا ينهاون رعيتهم أكثر من أن يحكموها، ويعملون على فرقتهم أكثر من العمل على وحدتهم، حتى أصبحت المقاطعة فريسة للصوصية والسلب، ولجميع أنواع الفوضى. ولذلك رأى الدوق أن إقامة حكومة صالحة فيها من الأمور الضرورية حتى يسالموه ويدينوا لحكمه بالطاعة؛ فولى عليهم من أجل هذا الغرض رميرو دي أوركو Remiro de orco. ولقد كان هذا رجلًا قاسيًا وقديرًا، ومنحه الدوق أوسع السلطات، ونجح رميرو نجاحًا عظيمًا في تنظيم البلاد وتوحيدها في زمن قصير. ولما رأى الدوق، حينذاك، أن السلطة المسرفة غير مناسبة، وخشي أن تولد الكراهية في النفوس، أنشأ في مركز الولاية دارًا مدنية للعدالة تحت رئاسة رجل ممتاز، وعينت فيها كل مدينة محاميها الخاص. ولما علم أن قسوة الأمس قد ولدت في النفوس قدرًا من الكراهية، قرر أن يظهر للعيان أن كل قسوة لحقت بالناس فيما مضى لم تكن لأوامر أصدرها، وإنما ترجع إلى ميول وزيره الخشنة؛ وذلك حتى يظهر النفوس ويكسبها تمامًا في جانبه. وحين وجد الفرصة قتل رومير، وشطر جسده شطرين، وألقاه ذات صباح وسط ميدان عام في تشرينا Cesena، وبجانبه قطعة من الخشب، وخنجر ملطخ بالدماء. أذهلت وحشية هذا المنظر الشعب، وأثارت في الوقت نفسه رضاه؛ ولكن لنعد من حيث استطردنا.

والآن، وقد أصبح الدوق قويًا، وفي مأمن من الأخطار الراهنة إلى حد ما، ومسلحًا هو نفسه، وقضى إلى حد كبير على القوى المجاورة

التي قد تؤذيه، لم يبق عليه الآن، إذا رغب في أن يواصل الفتح، سوى أن يفوز باحترام فرنسا له؛ لأنه علم أن الملك الذي كان قد كشف خطأه مؤخرًا قد لا يمد إليه يد المساعدة أبدًا، ولذا بدأ يبحث عن أحلاف جديدة، ويراوغ فرنسا في مناسبة الحملة التي كان الفرنسيون يقومون بها تجاه نابولي ضد الإسبانيين الذين كانوا يحاصرون جيتا Gaeta. لقد كان يقصد أن يستوثق منهم، وكان يستطيع أن يوفق بسرعة في ذلك لو أمد الله في حياة الإسكندر.

كانت هذه هي الإجراءات التي اتخذها الدوق لمواجهة الحاضر. أما بالنسبة إلى المستقبل، فقد خشي أن يعاديه وريث جديد لولايات الكنيسة، ولربما سعى إلى أن يسلب منه ما قد منحه إياه الإسكندر؛ ولذا أخذ يعمل على اتقاء ذلك بأربعة طرق. فأولاً، استأصل شأفة جميع من يجري في عروقهم دم الأسر الحاكمة التي كان قد اغتصب ملكها؛ وذلك لكي يجرد البابا من أي فرصة يستغلها ضده. وثانياً، كسب جميع نبلاء روما في صفه ليكبح بهم جماح البابا. وثالثاً، لم يأل جهداً في السيطرة على مجلس الكرادلة. ورابعاً، حصل قبل وفاة البابا على نفوذ كبير حتى يستطيع بمفرده أن يصد أول هجوم يشن عليه. وعند موت الإسكندر كان الدوق قد حقق من هذه الأمور ثلاثة، وأوشك على أن ينجز الرابع منها؛ لأنه دق عنق كثير ممن استطاع أن تصل إليه يده من الحكام السابقين، وفر منهم عدد ضئيل جداً؛ وضم إلى صفه نبلاء روما، وكان له نفوذ عظيم في مجلس الكرادلة، أما بالنسبة إلى الأملاك الجديدة، فقد اختط لنفسه أن يصبح سيد توسكانيا، وقد كان ملك بروجيا Perugia وبيومبينو Piombino، من مدة وجيزة، وفرض حمايته على بيزا؛ ولقد أخذها عندما لم يعد

يخشى الفرنسيين. (لأن الإسبان كانوا قد جردوا الفرنسيين من مملكة نابولي بصورة جعلت كلا الطرفين مضطراً إلى أن يخطب وده). وبعد ذلك سلمت لوقا Lucca و سيينا مرة واحدة؛ بسبب كراهيتهم للفلورنسيين من ناحية، وخوفاً من ناحية أخرى؛ لأنها كانت لا تملك أي موارد، حتى إنه لو وفق التوفيق الذي قدر له في السنة نفسها التي توفي فيها الإسكندر لفاز الدوق بقوة وشهرة تمكنانه من المحافظة على نفسه من دون أن يعتمد على حظ غيره أوقوته، ولكنه يستطيع أن يركن إلى سلطانه وقدرته فحسب؛ بيد أن الإسكندر توفي بعد خمس سنوات من امتشاق قيصر بورجا حسامه لأول مرة. ولم يبق للدوق سوى ولاية رومانا وطيدة الأركان، والمشروعات الأخرى معلقة في الفضاء بين جيشين قويين جداً ومعادين، وهو يشكو داء عضالاً. ولكن كانت للدوق تلك الحيوية والقدرة، وعرف جيداً كيف يكسب تأييد الرجال أو كيف يقهرهم، وعرف جيداً كيف يكسب تأييد الرجال أو كيف يقهرهم، وكانت قواعد ملكه التي قد وضعها في مدة وجيزة قوية مكيئة جداً، حتى إنه لو لم يكن هذان الجيشان أمامه، أو كان في صحة جيدة، لأمكنه أن يتغلب على الصعاب الأخرى كافة. ونشاهد قوة الأسس التي وضعها من أن رومانا انتظرت بالفعول لما يزيد على شهر. ومع أنه كان في روما الحي الميت، إلا أن مركزه ظل سليماً. وعلى الرغم من أن الباجليوني Baglioni، والفيتللي Vitelli والأورزني دخلوا روما، فإنهم لم يجدوا فيها أتباعاً ضده. لقد كان في مقدور الدوق، على الأقل أن يحول بين كرسي البابوية ومن لا يرغب هو فيه، وذلك إذا لم يكن يستطيع أن ينصب فيه من يشاء؛ وربما تيسرت له كل الأمور لو كان سليماً معافى حين وفاة الإسكندر. لقد

أخبرني يوم انتخاب يوليوس الثاني بأنه قد فكر في كل ما عساه أن يحدث عند وفاة أبيه، واحتاط لجميع الأمور، غير شيء واحد لم يدرك بخلده قط، ألا وهو أن يكون هو ذاته قريباً من حافة القبر عند وفاة أبيه.

ولذلك حين أستعرض جميع أعمال الدوق لا أجد ما يلام عليه، بل على العكس، أحس بأنني ملزم بأن أرفعه، كما فعلت، مثلاً ليحتذى به كل من وصل إلى الحكم بحظ غيره أو بأسلحته. ولم يكن في إمكان الدوق صاحب الشجاعة الفائقة والطموح الرفيع أن يفعل غير ما فعل، وما خابت خططه إلا لمرضه، وقصر حياة الإسكندر. ولذا فإن الواجب على كل من يعد من ضرورات إمارته الجديدة تأمين نفسه ضد الأعداء، وكسب الأصدقاء، والغلبة بالقوة أو بالخديعة، وأن يكون محبوباً ومهيّباً من الشعب، يسير خلفه جنوده ويجعلونه، وأن يسحق كل من في مقدورهم إيذاءه ومن قد يؤذونه، وأن يتناول القديم من الأوضاع بالتجديد، وأن يكون قاسياً وشفيقاً، نبيل الخصال، رحب التفكير وأن يلغي الجندية القديمة، وينشيء جندية جديدة، ويبقى بينه وبين الملوك والأمراء على الصداقة بطريقة تفرحهم إذا نفعوه، ويخافونه إذا أضروه مثل هذا الأمير لا يستطيع أن يجد مثلاً يحتذى به أفضل من أعمال هذا الرجل. بيد أن اللوم الوحيد الذي يوجه إلى الدوق، هو انتخاب يوليوس الثاني للبابوية. لقد أساء الاختيار، وكان في مقدوره كما قيل، أن يعوق انتخاب أي كردينال للبابوية، ما دام لم يتم له انتخاب البابا الذي يوافقه هو. وكان يجب عليه ألا يسمح أبداً بانتخاب أي كردينال من الكرادلة قد أساء

هو إليه، أو من قد يخشاه الدوق حين يرقى هذا إلى كرسى الباباوية؛ لأن الكراهية أو الخوف يدفع الرجال إلى الأذى. إن أولئك الذين قد أساء إليهم هم: القديس بطرس آدثنكولا، والقديس جورج، وآسكانيو وغيرهم. وكان غير هؤلاء جميعاً سيخشونه لو انتخبوا للباباوية إلا روهان والكرادلة الإسبانيون. فهؤلاء يخشونه لما بينهم وبينه من التزامات وصلة، وروهان لتفوذه العظيم؛ فلقد كان على قرابة بملك فرنسا. ولهذه الأسباب كان على الدوق أن يوجد، أولاً وقبل كل شيء، في الكرسي البابوي أحد الإسبانيين، فلو لم يكن يقدر كان عليه حينئذ أن يوافق على تعيين روهان لا القديس بطرس. إن كل من يظن أن المنفعة الحديثة تمحو أثر الإساءة القديمة من نفوس العظماء يخطئ خطأ كبيراً. ولهذا أخطأ الدوق في هذا الاختيار، وكان هذا سبب هلاكه في النهاية.

الفصل الثامن

من وصلوا إلى الإمارة بالجريمة

وحيث إنه لا تزال هناك طريقتان للوصول إلى الإمارة لا صلة بين أي منها وبين الحظ أو القدرة بتاتا، فيجب ألا نغض الطرف عنهما، مع أنه يمكن مناقشة طريقة منهما بصورة أكثر تفصيلاً لو كنا نعالج موضوع الجمهوريات . وهاتان الطريقتان هما أن يصل الفرد إلى الإمارة بوسائل خاصة خبيثة أو شريرة، أو حينما يصبح مواطن عادي أمير بلده بموافقة أقرانه المواطنين. وسوف أضرب عند الحديث عن الطريقة الأولى مثالين؛ أحدهما قديم، والآخر حديث، من دون الدخول أبعد من ذلك في مزايا هذه الطريقة؛ لأنني أرى في المثالين الكفاية لمن يضطر إلى محاكاتها.

ارتفع أجاتوكليس Agathocles الصقلي إلى عرش صقلية، لا من بين العامة فحسب، بل من أحقر مكان وأضعفه. كان أبوه صانع فخار؛ فعاش أجاتوكليس عيشة تميزت في جميع مراحل حياته بأقصى صور الشر، إلا أن شره كان مصحوباً بتلك الحيوية في الذكاء والبدن حتى إنه حين التحق بالجندية تقلب في رتبها إلى أن وصل إلى رتبة البريتور Praetor في سيراقوزة. وحين عين فيها، وعزم على أن يصبح أميراً، ويحافظ بالشدة ومن دون معونة الآخرين على ما قد أناله إياه الدستور كاشف هملاقار القرطاجني Hamilcar بخططه، وكان هذا

يحارب بجيوشه في صقلية، ودعا ذات صباح الشعب والسناتو في سيراقوزة، كما لو كان عليهم أن يتداولوا في أمور مهمة للجمهورية. وعندما أعطيت إشارة خاصة ذبح جنده جميع أعضاء السناتو وأغنى أغنياء المدينة. وبعد المذبحة احتلها، وقبض على زمام الحكم من دون أي محاولة مدنية. وعلى الرغم من أن القرطاجنيين هزموه مرتين، وحاصروه حصارًا تامًا، إلا أنه استطاع أن يدافع عن المدينة فحسب، بل أن يترك قسمًا من قواته للدفاع عنها، ويغزو إفريقيا بالقسم الآخر، ثم يفك حصار سيراقوزة في وقت قصير، ويضيق الخناق على القرطاجنيين حتى اضطروا إلى الاتفاق معه، وظلوا قانعين بملك إفريقيا ويتخلوا عن صقلية لأجاثوكليس. وعلى ذلك فإن كل من ينظر إلى أعمال هذا الرجل وخصاله فإنه يرى قليلًا منها يمكن أن ينسب إلى الحظ، إذا وجدت بينها أمور من ذلك؛ فوصوله إلى الإمارة، كما أوضحنا، لا يعزى إلى مساعدة غيره له، وإنما إلى تقلبه في رتب الجندية، وتقدمه فيها، وتكبده آلاف العقبات والأخطار، ثم محافظته عليها فيما بعد بوسائل كثيرة جدًا باسلة وخطرة. فلا يمكننا أن ندخل في باب القدرة ذبح أقران المزء من المواطنين، أو الغدر بالأصدقاء، أو عدم الوفاء، أو التجرد من الشفقة والتدين. وقد يصل الإنسان بهذه الوسائل إلى السيادة بالفعل، بيد أنها لا تكسبه مجددًا. لأننا لو نظرنا إلى قدرة أجاثوكليس على مواجهة الأخطار من دون وجل والغلبة عليها، وعظمة روحه في تحمل العقبات والتغلب عليها، فإن المرء لا يرى سببًا لكي يضعه في مرتبة دون مراتب أعظم الرؤساء شهرة. ومع ذلك فإن قسوته البربرية، وعدم رقة شمائله، وألوان وحشيته التي لا تحصى، لا تجيز جميعًا لنا بأن ندعوه بين أشهر الرجال. ونحن لا نستطيع أن ننسب إلى الحظ أو القدرة ما قد أنجزه من دون أي منهما.

وترك أليفروتو دا فرمو Oliverotto da fermo في أيامنا، وفي عهد الإسكندر السادس، صبيًا صغيرًا يتيمًا، يكفله خاله جيوفاني فوجلياني Giovanni fogliani الذي نشأه وألحقه في شبابه المبكر بالجنديّة تحت قيادة باولو فيتللي Paolo Vitelli لكي ينال مركزًا عسكريًا ممتازًا وقد تدرب في هذه المدرسة غير الهيئّة. وعند موت باولو حارب أليفروتو تحت قيادة شقيقه فيتلوتسو Vitellozzo حتى أصبح في زمن وجيز قائدًا من قواد قواته؛ وذلك لذكائه العظيم، ونشاطه العقلي والبدني، ولكنه حين عدّ البقاء تحت إمرة غيره من شأن العيب، عقد العزم على احتلال فرمو بمساعدة فيتللي وبعض أبناء فرمو الذين فضلوا عبودية وطنهم على حريته. ولذلك كتب إلى خاله جيوفاني فوجلياني عن رغبته في الحضور إلى فرمو لرؤياه وزيارة وطنه لطول غيابه عنه، وهو يستطيع، في الوقت نفسه أن يفتش، على قدر الإمكان، أملاكه. ولما كان أليفروتو قد جد ليكسب فحسب الشرف، فلكني يعلم أبناء وطنه أنه لم يضيع وقته سدى فهو يرغب في أن يحضر إلى فرمو مكرّمًا يرافقه مائة من الفرسان والأصدقاء والأتباع، ورجا خاله قائلاً: إن من دواعي سروره أن يصدر جيوفاني أوامره لكي يستقبله المواطنون في فرمو بحفاوة، وفي هذا الأمر أيضًا تكريم لخاله فهو أستاذه. ولم يقصر جيوفاني في القيام بأي حفاوة لائحة بابن أخته، وأصدر أوامره بأن يستقبلوه بالتكريم، وأنزله في دوره الخاصّة. ثم انتظر أليفروتو بضعة أيام ليهيئ جميع ما يلزم لخطه الأثيمة، ودعا جيوفاني فوجلياني وجميع وجوه فرمو إلى مأدبة كبيرة. وبعد تناول الطعام والترفيه المألوف في مثل هذه الولائم تطرق أليفروتو في الحديث بدهاء إلى موضوعات معينة مهمة للمناقشة، بأن تحدث

عن عظمة البابا الإسكندر، وعظمة ولده قيصر، وأعمالهما، وعندما أخذ جيوفاني والآخرين يردون على الحديث نهض فجأة قائلاً بأن الكلام في هذه الأمور ينبغي أن يكون في مكان خاص، وانسحب إلى غرفة تبعه إليها جيوفاني وجميع المواطنين الآخرين. ولم يكادوا يجلسون حتى هجم الجند عليهم من كمينهم، وذبحوا جيوفاني وجميع الآخرين. وبعد هذه المذبحة امتطى أليفر وتو جواده، وحاصر شيخ القضاة في قصره حتى اضطر الشعب هلعاً إلى طاعته وتكوين حكومة جعل نفسه أميرها. ولما كان قد قضى على كل من قد يؤذيه لو لم يرض عنه، قوى مركزه بأنظمة جديدة عسكرية ومدنية، حتى إنه لم يعيش هو نفسه في مدينة فرمو في سلام فحسب، بل أصبح يخشاه جميع جيرانه أيضاً، وذلك في بحر العام الذي ولي فيه الإمارة. لقد كان من الصعب أن يتقلب عهده، شأنه في ذلك شأن أجاتو كليس، لو لم يدع قيصر بورجا يخدعه عندما ألقى القبض على الأورزني والفيتلي في سنجاجليا، كما سبقت الإشارة منذ برهة قصيرة، وحيث أخذه هو أيضاً وشنقه مع فيتلولوتسو الذي كان أستاذاً له في القدرة والوحشية، وذلك بعد سنة واحدة من اغتياله خاله.

وقد يعجب البعض: كيف استطاع أجاتو كليس وغيره ممن يشبهون له، مع ما اقترفوا من ضروب لا تحصى للقدرة والقسوة، أن تتوفر لهم السلامة سنين عديدة في بلادهم، وأن يحموا أنفسهم من الأعداء في الخارج، ومن دون أن تتأمر عليهم رعيتهم بتاتاً، على الرغم من أن كثيراً غيرهم لم يقدروا البتة على أن يصونوا مركزهم في زمن السلم، وهذا لو أننا أغفلنا ذكر أيام الحرب غير المأمونة؟ أعتقد أن الأمر يرجع إلى كيفية استغلال الشدة استغلالاً صالحاً أو سيئاً؛ فالشدة الصالحة (لو جاز لنا أن نصف الشر بالخير) هي التي

قد تقال عن تلك الحالات التي تمارس مرة واحدة من أجل سلامة الأمير، ويستغنى عنها فيما بعد بوسائل أخرى تفيد الرعية على قدر الإمكان . واستخدام الشدة استخدامًا سيئًا يكون في تلك الحالات التي، مع قلتها، تزداد مع الزمن ولا تنقص . إن أولئك الذين ينهاجون على النهج الأول قد يعالجون حالتهم بإجراءات معينة، سواء بعون الله أم بمساعدة من البشر، كما فعل أجاتو كليس . أما غير هؤلاء فمن المستحيل عليهم أن يصونوا أنفسهم .

ومن هنا علينا أن نلاحظ أنه ينبغي للفتاح الذي يستولى على ولاية جديدة أن يهيء الأمر لكي يقترف ضروب قسوته مرة واحدة، حتى لا يضطر إلى أن يمارسها كل يوم؛ وذلك لكي يستطيع أن يطمئن الشعب إليه، وحتى يكسبه بجانبه بما ينفعه به، لا بالتغيرات الجديدة التي يقوم بها . إن كل من يفعل غير ذلك، جنبًا أو عملاً بمشورة غير صالحة، يضطر دائمًا إلى أن يقف والخنجر في يده، ولا يستطيع أن يركن إلى رعاياه بتاتا؛ لأنهم لا يستطيعون أن يطمئنون إليه بسبب أذاه الذي يتجدد؛ لأن الإساءة يجب أن تكون جميعها دفعة واحدة، حتى إنه كلما قل حدوثها قل ضررها . أما المنافع فينبغي أن تعطى قليلاً قليلاً حتى يمكن بصورة أفضل أن ينعموا بها . وعلى الأمير، قبل كل شيء، أن يعيش مع شعبه على وتيرة لا تغيرها الحوادث، سواء أكان الحظ موافقاً، أم قلب له الدهر ظهر المجن؛ لأنك لا تكون حين تنبجس الضرورة في الأوقات العصيبة في وقت يناسب استخدام الشدة، وما تفعل من خير فلا يعود عليك بفائدة؛ لأنه يؤخذ على أنه اضطرار؛ ولن تجني منه أي فائدة كانت .

الفصل التاسع

في الإمارات المدنية

ولكننا نصل الآن إلى الحالة التي يصبح فيها مواطن أميرًا برغبة أقرانه المواطنين، وليس بالجريمة أو العنف الذي لا يطاق؛ وقد تسمى هذه الحالة بالإمارة المدنية. وبلوغ هذه الولاية لا يتوقف بتأنا على الجدارة أو الحظ، ولكنه يعتمد بالأحرى على المكر يعينه الحظ؛ لأن المرء يبلغها برغبة الشعب، أو بإرادة الطبقة الأرستقراطية. ففي كل مدينة توجد هاتان الجماعتان المتعارضتان؛ والتعارض ناجم عن رغبة الشعب في تحاشي اعتساف الطبقة الأرستقراطية، ورغبة هذه في قيادة الشعب والبطش به، ويترتب على هاتين المصلحتين المتعارضتين في المدينة إحدى نتائج ثلاث: إما حكم مطلق، وإما حكم حر، وإما فوضى. ويصنع الشعب أو الطبقة الأرستقراطية الحكومة الأولى؛ والأمر يتوقف على الفرص النسبية التي تواتي الطرفين. فالنبلاء حين يرون أنهم عاجزون عن مقاومة الشعب يتحدون ويختارون واحدا من بينهم ويجعلون منه أميرًا؛ ليتسنى لهم في ظل سلطانه أن يحققوا مشروعاتهم الخاصة. والشعب، من ناحية أخرى، عندما لا يستطيع مقاومة النبلاء يسعى إلى أن يرفع من بينه أميرًا يصنعه لكي يحتمي في ظل سلطته. ومن يصبح أميرًا بمساعدة النبلاء يتكبد في المحافظة على سلطانه مشقة أعظم من مشقة من رفعه الشعب إلى الإمارة؛ فحوله كثيرون يعدون أنفسهم أندادا له، ومن هنا فهو لا يستطيع أن يوجهه أو يقود كما يروق له. أما الذي قد ارتفع إلى مرتبة

القيادة بعون من الشعب فيجد نفسه فريداً، ويلقى الجميع عدا القليل جداً مستعداً لطاعته . فضلاً عن ذلك، فإن المعاملة بالقسطاس، ومن غير أن تضر الآخرين، يستحيل معها إرضاء النبلاء، بينما إرضاء العامة بهذه الطريقة أمر هين جداً، لأن هدف الشعب أشرف من غرض النبلاء، فهو لا يبغي سوى تجنب البطش، في حين أن النبلاء يرغبون في التعسف. ويجب أن نضيف إلى ما سبق أن الأمير لا يستطيع أن يستوثق من شعب يعاديه؛ وذلك لكثرة عدده. ولن يتسنى له ذلك مع مناوأة الأشراف له؛ فهم قلة. إن شر ما يتوقعه الأمير من الشعب الذي يناوئه هو أن يتخلى عنه، ولكن ما يخشاه من النبلاء الذين يعادونه هو مقاومتهم الناشطة له، فضلاً عن تخليهم عنه. ولما كانوا أبعد نظراً من الشعب، وأشد مكرًا، فهم دائماً يخلصون أنفسهم وينضمون إلى من يتوقعون له الغلبة، وذلك في الوقت المناسب. والأمير مضطر، زيادة على ذلك، إلى أن يعيش دائماً مع الشعب نفسه، بينما يستطيع أن يعيش من دون الطبقة الأرستقراطية عينها؛ فهو الذي في وسعه أن يوجد لها ويقضي عليها في أي وقت، وأن يحسن مركزها أو يجردهم منه، وذلك كما يحلو له.

ولكي ألقى على هذا الجانب من حجتي ضوءاً أشد أقول: يجب أن يكون اعتبارنا للنبلاء بأسلوبيين مختلفين، أي إما أن يحكموا حكماً يجعلهم يتوفرون على الاعتماد على حظك، وإما غير ذلك. وأولئك الذين يرتبطون بك هذا الارتباط، ولا يعرفون الجشع، يجب أن تكرمهم، ومحبتهم واجبة. وأولئك الذين يقفون بعيداً عنك يجب النظر إليهم بطريقتين؛ فهم إما أنهم يفعلون ذلك إحجاماً وجبنًا، وفي هذه الحالة يجب عليك أن تستفيد بهم، وبخاصة أهل الرأي

منهم، حتى إنهم قد يشرفونك في السراء، وليس لك أن تخشاهم في الضراء. ولكن حين لا يترابطون معك؛ وذلك لغرض معين، ولغايات طموحة، فهذه أمانة على أنهم يفكرون في أنفسهم أكثر مما يفكرون فيك. ولذا وجب على الأمير أن يحترس من أمثال هؤلاء الرجال، وينظر إليهم كما لو كانوا أعداء غير ظاهرين سوف يساعدون على هدمه في وقت الشدة.

ولهذا ينبغي للأمير الذي أمره الشعب عليه أن يصون محبتهم له، ومهما يكن من شيء. وسوف يجد هذا أمراً سهلاً؛ لأن الشعب لا يلتمس شيئاً سوى ألا يسام الظلم. أما المرء الذي أصبح أميراً بمساعدة النبلاء وضد رغبة الشعب، فيجب عليه أن يسعى أولاً إلى نيل رضاه، وهذا ما سوف يكون سهلاً لو أنه دافع عن الشعب. ولما كان البشر الذين تصيهم نعم من يتوقعون منه الشر يذكرون هذا المنعم ذكراً أعظم، فكذلك الشعب يكون أسرع إلى الميل نحوه مما لو كان قد أصبح أميراً بمساعدتهم له. ويستطيع الأمير أن يكسب رضا الشعب بطرق شتى تختلف باختلاف الظروف، ولا يمكن أن نقدم لها أي قاعدة خاصة بها، ولذا فلن أتحدث عنها، ولن أقول سوى أنه يتحتم عليه أن يكسب صداقة الشعب، وإلا فلن يجد ملاذاً له حين يدق ناقوس الخطر.

صمد نابيس أمير إسبرطة لحصار بلاد اليونان جميعها وجيش روماني مظفر، ودافع عن وطنه ضدهم، وصان ولايته. وحين ظهر الخطر اكتفى بأن يستوثق من فئة قليلة؛ وما كان يكفيه ذلك لو كان الشعب يناوئه. ولا يذكرن أحد الحكمة الدارجة التي تقول: «من بين على الشعب بين على الطين»، ليعارض بها رأيي في هذا

الصدد؛ لأن تلك الحكمة تصدق حينما يركن فرد عادي إلى الناس ويقنع نفسه بأنهم سيخلصونه إذا بطش به الأعداء أو القضاة. وفي مثل هذه الحالة، غالبًا ما يجد المرء نفسه مخدوعًا، كما حدث في روما لآل جراكي Gracchi، وفي فلورنسا لجورجوسكالي Georgio Scali. ولكن الشعب لا يخدع أميرًا يدعم ولايته بهذه الأسس أميرًا شجاعًا بأسلًا، لا ينخلع قلبه عند الشدائد، ولا يتوانى في إعداد العدد الأخرى، ويستطيع أن يستنهض بقدرته وبوسائله الخاصة كتلة الشعب؛ ومثل هذا الأمير سوف يجد أنه قد أحسن إرساء قواعده ولايته.

ويحذر الخطر عادة بهذه الإمارات حين ينقلب الأمير من حاكم مدني إلى حاكم مطلق؛ لأن هؤلاء الحكام المطلقين إما أنهم هم أنفسهم الذين يقودون، وإما أنهم يقودون بوساطة ولاية لهم، ومركزهم في الحالة الأخيرة أشد ضعفًا وخطرًا منه في الحالة الأولى؛ لأنهم يكونون تحت رحمة من قد عينوهم ولاية، وهؤلاء يستطيعون أن يجردوهم من ملكهم، سواء بالعمل ضدهم، أم بالخروج على طاعتهم، وبخاصة في وقت الشدة. وفي مثل هذه الأخطار لا يكون الوقت مناسبًا لكي يفرض الأمير سلطانه المطلق فرضًا؛ لأن المواطنين والراعياء لن يكونوا مستعدين لإطاعة أوامره عند هذه الطوارئ، فهم قد ألفوا تلقي الأوامر من الولاية. وسوف يحتاج الأمير دائمًا، في الظروف العصيبة، إلى رجال يستطيع أن يعول عليهم. ومثل هذا الأمير لا يمكنه أن يركن إلى ما يراه في أوقات الهدوء والسكينة، عندما يكون المواطنون في حاجة إلى الإمارة؛ لأن كل فرديذلل الوعود حينئذ بكثرة، ويكون مستعدًا لاقتداء الأمير بحياته؛ فالموت بعيد. ولكن في ساعة الشدة حين تحتاج الدولة إلى المواطنين، لن

يجد منهم وقتئذ إلا القليل . وإنها لتجربة شديدة الخطر، ولا يمكن أن تقع إلا مرة واحدة.

ولذا يجب على الأمير العاقل أن يبحث عن وسائل يكون رعاياه بها في حاجة إلى حكومته دائماً، وفي كل ظرف ممكن، وحينئذ سوف يكونون على الدوام أوفياء له.

الفصل العاشر

كيف يجب قياس قوة الإمارات كافة؟

وثمة نقطة أخرى من الضروري أن ننظر إليها ونحن نبحث في صفات هذه الإمارات، ألا وهي: هل للأمير مثل هذه الولاية التي تجعله قادرًا على أن يصون نفسه بمفرده عند الحاجة، أو هو في حاجة إلى حماية غيره دائمًا؟ ولكي أوضح هذه النقطة توضيحًا أفضل أقول: إنني أعتبر أولئك الذين يستطيعون صيانة أنفسهم بمفردهم هم من في وسعهم أن يجندوا جيشًا كافيًا لوفرة المال والرجال، وألا يقهرهم أي مغير عليهم؛ وأعدُّ الذين في حاجة إلى غيرهم دائمًا هم أولئك الذين لا يقدرّون على أن ينازلوا أعداءهم في الميدان، ولكنهم يضطرون إلى الانسحاب داخل مدنهم ويدافعون. لقد ناقشنا الحالة الأولى منذ وقت قصير، وسوف نتكلم عنها فيما بعد، حين تسنح الفرصة. وفي الحالة الثانية، ليس ثمة قول سوى أن نستنهض هذا الأمير لتحصين مدينته وإمدادها، وألا يعبأ بما حولها إن كل من حصن مدينته تحصينًا منيعًا، واتخذ لسياسة رعاياه الإجراءات التي رسمناها وسوف نعيد ذكرها فيما بعد يهاجم بإحجام شديد؛ لأن الناس يعافون دائمًا المشروعات التي تنبئهم بمصاعبها ولا يمكن أبدًا أن تبدو مهاجمة أمير له مدينة منيعة، ولا يناوئه شعبه، أمرًا هينًا.

إن المدن الجرمانية حرة، ولا يحيط بها سوى إقليم صغير، وتدين بالولاء للإمبراطور بمحض إرادتها، وهي لا تخشاه أو

تخشى قوة من القوى الأخرى حولها. وهي محصنة تحصينًا يجعل كل طامع فيها يعد إخضاعها مهمة شاقة وصعبة المراس؛ فلها الخنادق اللازمة، والحصون الضرورية، والمدفعية الكافية، وتحفظ دائمًا في مخازنها العامة بما يسد حاجتها عامًا كاملاً من الغذاء والشراب والوقود. وبالإضافة إلى ذلك، فإن لديها الوسائل الكافية لأن تقدم للطبقات الدنيا العمل لسنة كاملة في هذه الأعمال التي تكون عصب المدينة وحياتها، وفي الصناعات التي تعيش منها الطبقات الفقيرة؛ وذلك لكي تحتفظ بالطبقات الدنيا راضية، ومن دون خسارة تصيب الثروة العامة. وما زالت المدن الجرمانية تمجد التدريب العسكري وترفع من شأنه، وتنفذ لوائح عديدة للمحافظة عليه.

ولذا لا يمكن أن يغير أحد على أمير له مدينة حصينة، ويحبه الشعب. ولو فرض أن حدث ذلك فإن المعتدى سيضطر إلى التقهقر كسيف البال؛ لأن أمورًا كثيرة جدًا في هذا العالم تتغير، ومن هنا يكاد أن يستحيل على أي إنسان أن يستمر عبثًا في حصار مدينة لمدة عام. وعلى أولئك الذين يحاجوني بأن الشعب لن يطيق صبرًا حين يرى العدو خارج المدينة وقد أضرم النيران في أملاكه الخاصة وأحرقها، وأن الحصار الطويل والمصالح الخاصة ستجعله ينسى أميره، أجيب: إن الأمير القوي والشجاع يتغلب دائمًا على تلك المصاعب، تارة بأن يفعم القلوب بأمل الخلاص القريب منها، وأخرى بأن يثير فيها الخوف من قسوة العدو، وثالثة بأن يستوثق بحذق من أولئك الذين يبدون له أصحاب جرأة مفرطة. وفضلاً عما تقدم، فإن العدو بطبيعة الحال يشعل النيران في البلاد في أول وصوله وفي الوقت الذي لا

تزال فيه النفوس ذات حمية، وتتطلع إلى الدفاع عن ذواتها؛ ولذا تظل مخاوف الأمير قليلة. لأنه بعد مرور فترة من الزمن، وعندما تكون الحمية قد فترت، والدمار قد وقع، وابتلينا بالشر، وليس ثمة علاج؛ فحينئذ تصبح النفوس أكثر استعدادًا للاتحاد مع أميرها؛ لأنه يبدو لهم مدينًا لهم بالمعروف فدورهم قد أحرقت، وأملاكهم قد خربت، في سبيل الدفاع عنه.

إن من طبيعة الإنسان أن النعمة التي ينعم بها على غيره تربطه به شأن تلك التي يأخذها منه. وبناء عليه؛ فإذا نظر الأمير الحكيم إلى الأمور كافة بعين الاعتبار الصحيح فلن يصعب عليه أن يجعل روح مواطنيه عالية، عند بدء الحصار، وفي إبانها، لو كان يملك المؤمن والوسائل للدفاع عن نفسه.

الفصل الحادي عشر

في الإمارات الكنسية

ولم يعد الآن سوى الحديث عن الإمارات الكنسية التي تكون جميع مصاعبها قبل الاستيلاء عليها. وهي تكتسب إما بالقدرة وإما بالحظ، ولكن المحافظة عليها لا ترجع إلى أي منهما؛ لأن التقاليد الدينية القديمة تبقي عليها، ولهذه التقاليد من القوة والخاصية ما يبقي على سلطان أمرائها مهما كان شكل سلوكهم، وصورة حياتهم. إن هؤلاء الأمراء هم وحدهم الذين يملكون إمارات من دون أن يدافعوا عنها، ولهم رعايا من غير أن يحكموهم، وإماراتهم لا تؤخذ منهم، مع أنها غير محمية، ورعاياها لا يتبرمون منها مع أنهم غير محكومين، كما لا يخطر ببالهم ولا يستطيعون أن ينسلخوا عنها؛ ولذلك فهذه هي الإمارات الوحيدة السعيدة الآمنة. ولكن لما كانت علل عليا تصونها وترفعها، ولا يستطيع العقل البشري أن يرقى إليها، فلن أقرب الحديث فيها؛ لأنه رجم بالظن وحماقة. مع ذلك قد يوجه إليّ هذا السؤال: كيف حدث أن نالت الكنيسة هذه السلطة الزمنية الكبيرة، في حين أنه كانت القوى الإيطالية قبل الإسكندر السادس، وليس القوى منها حقاً فحسب، بل جميع السادة والنبلاء، حتى من لا أهمية له لا تقدر سلطتها الزمنية سوى تقدير تافه، بينما يرهباها الآن ملك لفرنسا، وكانت تستطيع أن تطرده من إيطاليا، وأن تهدم البنادقة أيضاً؟ ولهذا السبب، ولو أن هذا معروف جيداً، فإني لا أعتبر ذكره أمراً غير لازم.

كانت هذه البلاد، قبل أن يدخل شارل ملك فرنسا إيطاليا، تحت حكم البابا، والبنادقة، وملك نابولي، ودوق ميلانو، والفلورنسيين. وكان على هذه القوى أن تجعل نصب أعينها هدفين رئيسيين. الأول، ألا يدخل أجنبي إيطاليا غازيًا، والآخر، ألا توسع حكومة من الحكومات الراهنة أملاكها. وكان البابا والبنادقة من أوائل أولئك الذين يجب الوقوف لهم بالمرصاد. وكان الأمر يتطلب مخالفة الآخرين جميعًا لنوقف البنادقة، كما في مسألة الدفاع عن فرارا. ولكبح جماح البابا كان الأمر يستدعي استخدام البارونات الرومانيين؛ وهؤلاء كانوا ينقسمون إلى حزبين: الأورزني Orsini، والكولونا Colona. ولما كان ثمة قتال مستمر بينهم فقد كانوا دائمًا على أهبة للحرب، تحت ناظري البابا، فأضعفوا البابوية وجعلوها غير وطيدة. ومع أنه كان يظهر من حين لآخر بين الباباوات حازم مثل سكستس Sixtus، يَبْدُ أنه لم يتمكن من التخلص من هذه المتاعب، سواء بحظه أو بقدرته. لقد كان السبب قصر حياتهم. ففي بحر عشرة أعوام، وهي قاعدة لمتوسط حياة البابا، وجد صعوبة عظيمة في قمع ولو حزبًا واحدًا من الحزبين. ولو فرضنا، مثلاً، أن أحد الباباوات أوشك على القضاء على الكولونا، فإن غيره يخلفه ويعادي الأورزني، فينجم عن ذلك أن ينهض الكولونا من جديد، ولا يجد البابا الفرصة للقضاء عليهم.

هذه هي العلة في أن سلطان الباباوية الزمني في إيطاليا لم يكن إلا موضع احترام ضئيل. ثم قام الإسكندر السادس، الذي جعلنا نشهد من دون جميع من سبقوه قاطبة، كيف يستطيع البابا أن يسود بالمال والرجال معًا. لقد قام بجميع الأعمال التي قد وصفتها من قبل

حين الكلام عن أعمال الدوق عندما اتخذ من دوق فالنتين آلة له، وانتهاز فرصة الغزو الفرنسي. وعلى الرغم من أن عظمة الكنيسة لم تكن هدفه، بل أبهة الدوق، فإن عظمة الكنيسة نتجت عما قام به؛ فقد أصبحت بعد وفاة الدوق وريثة لما قدمت يداه. ثم جاء البابا يوليوس الذي ألغى الكنيسة قوية تملك جميع روماناء، والبارونات الرومانيين وقد كسرت شوكتهم، والأحزاب وقد دمرتها شدة الإسكندر. كما وجد الطريق مفتوحاً لكي يجمع الثروة بطرق لم يعرفها أحد قبل عهد الإسكندر. ولم يقف البابا يوليوس عند حد اتخاذ هذه الأساليب فحسب، ولكن تناولها بالزيادة أيضاً. فصمم على أن يكسب بولونيا، ويقمع البنادقة، ويطردهم الفرنسيين من إيطاليا. وقد وفق في جميع هذه الحملات. إنه يستحق ثناء أكثر من غيره؛ لأنه قام بكل ما يزيد من سلطان الكنيسة الزمني، لا سلطان أي فرد خاص، وأبقى أيضاً على حزبي الأورزني والكولونا في الحالة التي وجدتهما عليها. ومع أنه كان بين صفوفهما زعماء في مقدورهم أن يقوموا بتغيير الأوضاع، فثمة أمران كانا يجعلانهم لا يتحركون. أولهما، قوة الكنيسة التي هلعوا منها. والآخر، أنه لم يكن لهم بالفعل كرادلة يخصوصونهم، وهؤلاء أصل الاضطرابات بين صفوفهم. لأن هذه الأحزاب لا تستقر أبداً حينما يكون لها كرادلة؛ فهؤلاء يشيرون الأحزاب في داخل روما وخارجها معاً، ويضطرون البارونات إلى حمايتهم. وهكذا تنشأ بين البارونات الفتن، وتقوم الاضطرابات؛ نتيجة لمطامع الأساقفة. ولذا فقد وجد قداسة البابا ليو العاشر Leo X الباباوية ذات قوة عظيمة جداً، ومن هنا يزكو الأمل في أنه سوف يزيدها عظمة وجلالاً بطيبته وفضائله الأخرى التي لا تعد، إذا كان غيره قد جعلها عظيمة بقوة السلاح.

الفصل الثاني عشر

في الأنواع المختلفة للجنودية وفي الجنود المأجورين

والآن، وقد ناقشت مناقشة تامة خصائص هذه الإمارات التي رأيت البحث فيها، ونظرت من ناحية أسباب فلاحها، أو علل سقوطها، وبينت أيضًا الطرق التي قد خاول بها كثير الحصول على مثل هذه الولايات، لا يبقى أمامي الآن سوى أن أعالج بصورة عامة الوسائل الهجومية والدفاعية التي يمكن أن تستخدم في كل منها.

لقد سبق أن قلنا: كم يلزم للأمير أن تكون له دعائم صالحة، وإلا كان القضاء عليه مؤكدًا. إن الدعائم الأولى لجميع الولايات، سواء جديدة أو قديمة أو مختلطة، هي القوانين الصالحة، والأسلحة الصالحة. ولما كان من غير الممكن أن توجد قوانين صالحة حيث لا توجد الأسلحة الصالحة. فسوف أناقش الآن الأسلحة دون القوانين. ولذا أقول: إن الأسلحة التي يدافع بها أمير عن مملكاته إما أن تكون له خاصة، وإما أسلحة مأجورة، وإما لحلفاء له، وإما أسلحة مختلطة. والأسلحة المأجورة والمساعدة خطيرة، ولا فائدة لها. فلو أقام أحد ولايته على الأسلحة المأجورة فلن يقف راسخًا ولا وثاقًا؛ لأنها أسلحة مفككة، وذات مطامع، وبلا نظام عسكري*، ولا عهد لها، وذات جسارة بين الأصدقاء، وجبانة أمام الأعداء، ولا توفي بأي عهد مع الناس، ولا يؤجل خرابها سوى إغارة العدو. هم يسلبونك

* المراد هنا الضبط والربط في اصطلاحاتنا العسكرية.

الفصل الثاني عشر

في الأنواع المختلفة للجنودية وفي الجنود المأجورين

والآن، وقد ناقشت مناقشة تامة خصائص هذه الإمارات التي رأيت البحث فيها، ونظرت من ناحية أسباب فلاحها، أو علل سقوطها، وبينت أيضًا الطرق التي قد خاول بها كثير الحصول على مثل هذه الولايات، لا يبقى أمامي الآن سوى أن أعالج بصورة عامة الوسائل الهجومية والدفاعية التي يمكن أن تستخدم في كل منها.

لقد سبق أن قلنا: كم يلزم للأمير أن تكون له دعامات صالحة، وإلا كان القضاء عليه مؤكدًا. إن الدعائم الأولى لجميع الولايات، سواء جديدة أو قديمة أو مختلطة، هي القوانين الصالحة، والأسلحة الصالحة. ولما كان من غير الممكن أن توجد قوانين صالحة حيث لا توجد الأسلحة الصالحة. فسوف أناقش الآن الأسلحة دون القوانين. ولذا أقول: إن الأسلحة التي يدافع بها أمير عن مملكاته إما أن تكون له خاصة، وإما أسلحة مأجورة، وإما لحلفاء له، وإما أسلحة مختلطة. والأسلحة المأجورة والمساعدة خطيرة، ولا فائدة لها. فلو أقام أحد ولايته على الأسلحة المأجورة فلن يقف راسخًا ولا واثقًا؛ لأنها أسلحة مفككة، وذات مطامع، وبلا نظام عسكري*، ولا عهد لها، وذات جسارة بين الأصدقاء، وجبانة أمام الأعداء، ولا توفي بأي عهد مع الناس، ولا يؤجل خرابها سوى إغارة العدو. هم يسلبونك

* المراد هنا الضبط والربط في اصطلاحاتنا العسكرية.

في السلم، والعدو يقوم بذلك في الحرب. وعلة هذا أنه لا يدفعهم حب ولا دافع آخر، سوى الأجر الزهيد، إلى أن يبقوا في ساحة القتال؛ وهذا لا يكفي لأن يجعلهم مستعدين لأن يموتوا دفاعاً عنك. هم يرغبون تماماً في أن يكونوا جنودك طالما لا تقوم أنت بحرب، وحين تأتي فإما أن يفروا، وإما أن يتسللوا سريعاً ومعاً. وينبغي ألا أجد عناء كبيراً في التدليل على ذلك ما دام خراب إيطاليا الراهن لا يعزى الآن إلى أي أمر آخر سوى اعتمادها سنين طويلة على الأسلحة المأجورة. حقاً، ساعد هؤلاء بعض الأمراء على بلوغ السلطان، وظهروا شجعاناً أقوياء حينما تنافسوا فيما بين بعضهم بعضاً، ولكنهم أظهروا عدم جدارتهم حين أتى الأجنبي. ولذلك حدث أن أتيح لشارل ملك فرنسا أن يستولي على إيطاليا «بالطباشير»*. وأولئك الذين يعللون خراب إيطاليا ودمارها بخطايانا صادقون. ولكنها ليست الخطايا التي يعنون، وإنما هي تلك التي ذكرت. ولما كانت هي خطايا الأمراء، فهم أيضاً الذين قد لقوا العقاب.

وسأشرح على وجه أكمل عيوب الأسلحة المأجورة. إن قادتها إما رجال أكفاء وإما غير أكفاء؛ فإذا كانوا أكفاء فإنك لا تستطيع أن تركز إليهم؛ لأنهم يستوحون دائماً عظمة أنفسهم إما بقمعك أنت سيدهم، وإما بالضغط على غيرك ضد مقاصدك. ولكن إذا كان القائد غير كفء فإنه يدمرك على وجه العموم. وإذا أجابني إنسان بقوله: إن هذه هي حال كل أمير نفسها مع القوات المسلحة، سواء أكانت مأجورة أم غير مأجورة، فإني أقول: إما أن الجيوش يستخدمها أمير وإما جمهورية، وعلى الأمير أن يتولى بشخصه منصب القيادة، ويجب أن ترسل الجمهورية مواطنيها من أجل ذلك؛ وإذا ظهر العجز

* أي من دون أقل عناء.

ممن أرسل ينبغي لها أن تغيره. وإذا كان كفتًا قديرًا يجب بالقانون أن نمنعه من أن يتجاوز الحدود المرسومة. وتدل التجربة على أن الجمهوريات المسلحة والأمراء المسلحين هم فحسب الذين يتقدمون تقدمًا عظيمًا، بينما القوات المأجورة ليست غير أذى، وأن الجمهورية المسلحة أيضًا تخضع لحكم مواطن من أبنائها بصعوبة أكبر منها في جمهورية جيشها من قوات أجنبية.

كانت روما وإسبرطة مسلحتين تسليحًا قويًا، وحرتين لقرون عديدة. ونعم السويسريون بالحرية التامة، وكانوا مسلحين تسليحًا قويًا. ولدينا مثال للجيش المأجورة في العصور القديمة وهو القرطاجيون الذين بطش بهم جنودهم المأجورون بعد نهاية أول حرب لهم مع الرومانيين، وفي الوقت نفسه الذي كانت القيادة ما تزال فيه لأبناء قرطاجنة. ولقد جعل أهل طيبة فيليب المقدوني قائدًا لقواتهم عقب موت إيامينونداس Epaminondas؛ وبعد أن تم له النصر جردهم من حريتهم. ولما قضى الدوق فيليب نحبه، استأجر أهل ميلانو فرنشيسكو سفورتسا لمحاربة البنادقة، ولما تغلب عليهم في موقعة كارافاجو Caravaggio تحالف معهم لكي يجمع أهل ميلانو، وهم الذين كان يعمل عندهم. لقد عمل أبوه في خدمة جوهانا ملكة نابولي، وتركها فجأة وهي عزلاء، فاضطرت إلى أن ترتمي بين أحضان ملك الأراجون حتى لا تفقد المملكة. ولو قيل إن البنادقة والفلورنسيين قد وسعوا ممتلكاتهم، في الأيام التي خلت، بالقوات المأجورة من دون أن يجعل قوادهم من أنفسهم أمراء عليهم، ولكنهم دافعوا عنهم، أجيب: إن الفلورنسيين قد حباهم الحظ في هذه الحالة؛ لأن بعض القواد الأكفاء الذين كان يمكن أن يخشوا جانبهم لم يقوموا بغزو، ولقي بعض آخر معارضة، ووجه الباقي منهم

مطامعه وجهة أخرى. إن الذي لم يقم بغزو هو السيرجون هوكوود Sir john Hawkwood، ولا نستطيع أن نحكم على ولائه مادام لم يعرف الظفر. ولكن سوف يعترف كل إنسان بأنه لو كان قد قام بفتح فلربما وقعت فلورنسا تحت رحمته. وكان البراتشسكي Bracceschi ضد سفورتسا الأب على الدوام، وهؤلاء كانوا بعضهم لبعض عقبة متبادلة. ووجه فرنشيسكو أطماعه إلى لو مبارديا، وبراتشو Braccio إلى الكنيسة ومملكة نابولي.

ولننظر إلى ما حدث منذ مدة وجيزة. عين الفلورنسيون باولو فيتللي Paolo Vitelli قائداً لهم. وهو رجل حكيم لدرجة عظيمة، ارتفع إلى أسمى مراتب الامتياز من مرتبة عادية. ولا ينكر أحد أنه لو كان قد استولى على بيزا؛ لتعين على فلورنسا أن تهتم اهتماماً بالغاً بالإبقاء على صداقته؛ لأنه لو كان قد حارب في صفوف أعدائهم فلربما عدموا سبيلاً لمقاومته، ولو أبقوا عليه لاضطروا إلى الخضوع له. أما إذا نظر المرء إلى التقدم الذي أحرزه البنادقة فإنه يرى أنهم كانوا يعملون بثقة وعظمة طالما كانوا يحاربون بقواتهم الوطنية، حتى إنهم قبل أن يشرعوا في حملاتهم البرية حاربوا ببسالة بأبناء الطبقة الأرستقراطية والعامية. ولكن حين بدأوا يحاربون في البر تخلوا عن هذه الفضيلة، وأخذوا في السير على التقاليد الإيطالية. وفي بدء عهدهم بالتوسع البري، لم يكن عليهم أن يخشوا قوادهم كثيراً؛ فأقليمهم لم يكن واسع الرقعة، وصيتهم لم يكن كبيراً. ولكن حين اتسعت أملاكهم، كما فعلوا تحت قيادة كارمنيولا Carmagnola، تمثل لهم خطوهم؛ لأنهم حين رأوه من ناحية قوياً جداً بعد أن هزم دوق ميلانو. وحين عرفوا، من ناحية أخرى، فتور همته في هذه الحرب، رأوا ألا يقوموا بأي غزو جديد فيما بعد تحت قيادته. ولم يكن لهم أن يرغبوا في طرده، أو أن

يستطيعوا ذلك؛ خشية أن يفقدوا ما قد استولوا عليه. فلذا اضطروا إلى إعدامه ليأمنوا جانبه. وحينئذ اتخذوا بارتولوميو دابر جامو Bartolommeo da Bergamo، وروبر توداسان سفيرينو Roberto da san Severino، والكونت دي بتليانو Count di Pitigliano وأمثالهم قوادًا لهم، وكانوا يخشون أن تصيبهم من جرائم الخسارة بدلًا من الغنم، كما حدث فيما بعد في فايللا Vaila، حيث خسروا في يوم واحد ما غنموه في ثمانية قرون بشق الأنفس؛ وذلك لأننا لا نحرز من الملك إلا قليلًا تافهًا بالقوات المأجورة في زمن طويل، ولكننا نتكبد بها خسائر مباغطة وعجيبة. ولما كنت قد اقتبست هذه الأمثلة من إيطاليا التي قد حكمتها القوات المأجورة سنين طويلة، فسوف أبحث فيها بصورة أكثر تفصيلًا لكي نستطيع معالجتها معالجة أفضل حين نرى أصلها وتطورها.

يجب أن نفطن إلى أن إيطاليا كانت في هذه الأيام الأخيرة مقسمة إلى ولايات كثيرة، حين بدأت الإمبراطورية في الانحلال السريع وأخذ البابا ينال صيتًا في الأمور الزمنية، واثارت مدن رئيسة كثيرة على نبلائها الذين كان يحبوهم الإمبراطور، ومن هنا كانت تدين لهم بالطاعة؛ ولقد شجعت الكنيسة على هذا الأمر لكي تزيد من سلطانها الزمني. وفي مدن أخرى كثيرة أصبح أحد السكان أميرًا. وهكذا كانت إيطاليا قد سقط جلها في قبضة الكنيسة تمامًا وأيدى جمهوريات قليلة. ولما كان القساوسة وغيرهم من المواطنين لم يعتادوا على حمل السلاح، فقد أخذوا يستأجرون الأجانب كجنود. وأول من أعطى الصيت لهذا النوع من الجندية هو البريجيودا كومو Alberigio de como من أهل رومانا، وبراتشو وسفورسا اللذان كانا في حينهما أصحاب الكلمة الأولى في إيطاليا، ولقد دربهما البريجيودا كومو مع

غيرهم. ثم جاء من بعدهم جميع أولئك القادة الذين قادوا جيوش إيطاليا حتى الوقت الحاضر، وكان من نتائج فلاحهم أن تغلب شارل على إيطاليا، واقتربها لويس، وطغى فيها فراندو Ferrando، وأهانها السويسريون. وكان منهج هؤلاء الذي ساروا عليه أن يزيدوا من نبههم أولاً بأن يزعموا الثقة في المشاة. وفعلوا ذلك لأنه لم يكن لهم وطن، وكانوا يعيشون على ما يكسبون، وقليل من المشاة لا يشهر أمرهم وهم لا يستطيعون أن يحتفظوا بعدد كبير منها؛ ولذا كادوا أن يقتصروا تماماً على الفرسان؛ لأن عددًا قليلاً منهم يكفي لأن تدفع لهم أجور حسنة، ويخلع عليهم الشرف. ولقد انحدروا بالأمور إلى تلك الحالة التي لا نجد فيها سوى ألفين من المشاة بين جيش قوامه عشرون ألف جندي. وطرقوا أيضًا جميع السبل لكي يخلصوا أنفسهم والجنود من أي مشقة أو خوف، وذلك بأن يكفوها في نزالهم مئونة سفك دم بعضهم بعضًا؛ بيد أنهم كانوا يأسرون الأسرى من دون أن نتوقع منهم أخذ فدية. ولقد كانوا لا يهاجمون التحصينات الحربية ليلاً، ولا يغير على الخيام ليلاً أولئك الذين يكونون منهم في داخل الحصون، ولم يحفروا حول معسكراتهم الخنادق، ولم يضعوا المتاريس، ولم يحاربوا في الشتاء. لقد أجاز قانونهم العسكري لهم جميع هذه الأمور، وكان مبتكرًا، كما قلنا، لتجنب النصب والخطر، حتى إنهم انحدروا بإيطاليا إلى العبودية، وأنزلوها إلى الحضيض.

الفصل الثالث عشر

في القوات المأجورة، والمختلطة، والوطنية

لقد اصطالح على أن قوات أحد الجيران الأقوياء التي يطلب أمير مجيئها لنجدته والدفع عنه قوات مساعدة، وهي عديمة الفائدة كالقوات المأجورة. لقد فعل ذلك في الأزمنة الأخيرة يوليوس حين رأي فشل القوات المأجورة الذريع في حملة فرارا، ولجأ إلى القوات المساعدة، ورتب الأمور مع فرديناند ملك إسبانيا على أن يساعده بجيوشه. قد تكون هذه القوات صالحة في حد ذاتها، ولكنها دائماً خطيرة بالنسبة إلى أولئك الذين يستعبرونها. فالهزيمة لك إن هي انكسرت، وإن أنت انتصرت ظللت أسيراً لها. ومع أن التاريخ القديم حافل بأمثلة لذلك، فإنني لن أترك مثال يوليوس الثاني، فهو ما زال حيّاً في الذاكرة. لقد كان الطريق الذي سار فيه أبعد الطرق عن الحكمة، وذلك حين رغب في أن يأخذ فرارا ووضع نفسه بكلها وكييلها داخل نفوذ أجنبي. ولكن أظهر حسن الطالع في هذا المقام علة ثالثة حالت دون أن يحصد آثار سياسته الفاسدة؛ لأن السويسريين ثاروا وطرّدوا الظافرين حين هزمت القوات التي كانت تساعده في رافنا، وذلك على عكس جميع ما كان يتوقع هو أو غيره، حتى إنه لم يأسره العدو أو القوات التي كانت تساعده؛ وذلك لأنه انتصر بأسلحة أخرى غير أسلحتها. واستأجر الفلورنسيون الذين لم يكونوا مسلحين كلية عشرة آلاف فرنسي لمهاجمة بيزا، وبهذا

الإجراء خاطروا بأنفسهم مخاطرة فاقت غيرها في أي فترة من فترات كفاحهم. وحشد إمبراطور القسطنطينية في بلاد اليونان عشرة آلاف تركي لكي يقاوم جيرانه، وهؤلاء رفضوا الجلاء والعودة بعد الحرب، وكان ذلك بداية استعباد من كفروا بالأمانة لبلاد اليونان.

فليستخدم هذه القوات من لا يرغب في الظفر. فهي أشد خطراً من القوات المأجورة، وهي آلة الدمار الكامل؛ لأنها جميعاً متضافرة، وتدين بالطاعة لغيرك، بينما تحتاج القوات المأجورة لكي تضرك، وفي حالة ظفرها، إلى وقت أطول، وفرصة مواتية. لأنها جميعاً لا تكون هيئة واحدة، وأنت الذي تستخدمهم وتدفع لهم الأجور؛ ولذلك فإن فئة عينتها قواداً لا تستطيع أن تستولي في الحال على سلطة تكفي لأن تتمكن من الإضرار بك. وقصارى القول: إن أشد أخطار القوات المأجورة في جنبها وإحجامها عن القتال، ولكن خطر القوات المساعدة في شجاعتها.

ولذلك يتحاشى الأمير العاقل دائماً أن يستخدم هذه القوات، ويلجأ إلى قواته الوطنية، ويفضل أن ينكسر بها على أن يكسر بقوات غيره، وذلك حين لا يعتبر النصر الذي تكسبه الأسلحة الأجنبية نصراً حقيقياً. ولن أتردد أبداً في الاستشهاد بقيصر بورجا وأعماله. دخل هذا الدوق روماناً بالقوات المساعدة، فكانت طلائع قواته تتكون تماماً من جنود فرنسيين، وبهذه استولى على إمولولا Imola، وفورلي Forli ولكن حين ظهر أن جانبها لا يؤتمن لجأ إلى القوات المأجورة؛ لأنها أقل خطراً، واستأجر الأورزني والفيتللي. ولما تشكك في أمرهم بعد تجربتهم، ووجدهم غير مخلصين وخطرين، بطش بهم وعول على رجاله هو. ويتسنى للمرء أن يرى بسهولة الفارق بين هذه

القوات إذا نظر في البون بين اسم الدوق حين كان عنده الفرنسيون فحسب، وعندما اضطر إلى أن يعول على نفسه ويعتمد على جنوده. وإننا نلقى أن شهرته كانت تزداد باستمرار، ولم يبلغ احترامه قط درجة عالية جدًا مثلما رأى الجميع أنه سيد قواته الأول والأخير.

ولا أريد أن أترك الأمثلة من تاريخ إيطاليا الأخير، ولكنني لا أستطيع أن أغفل عن ذكر هيروسيراقوزة الذي قد تحدثت عنه منذ وقت وجيز. حين جعل أهل سيراقوزة هذا الرجل، كما قلت، قائد الجيش، عرف في الحال عدم فائدة ذلك الجيش الذي كان منظمًا على طريقة قواتنا الإيطالية المأجورة. ولما رأى أن الإبقاء عليه أو الاستغناء عنه أمر غير مأمون، قطعهُ إربًا إربًا، وأخذ منذ ذلك الحين يحارب بأسلحته، لا بأسلحة غيره. وأستشهد أيضًا بقصة رمزية من التوراة توضح هذه النقطة توضيحًا جيدًا. لما قدم داود نفسه لشاول لكي يذهب وينازل جوليath بطل فلسطين دججه بسلاحه الخاصة حتى يشجعه، ولكن داود وقد جرب السلاح رفضه قائلاً: إنه لا يستطيع أن يحارب به جيدًا؛ ولذلك فضل أن يواجه العدو بمقلعه وخنجره. والخلاصة، أن أسلحة غيرك إما ألا تكفيك وتقصّر عن النصر، وإما تنقض ظهرك، وإما تشل حركتك. إن شارل السابع أبا الملك لويس الحادي عشر حين حرر فرنسا من الإنجليز بشجاعته الفائقة وحظه السعيد، اعترف بأن من الضروري أن يكون جيش الأمير من القوات الوطنية، وأدخل في مملكته نظامًا للفرسان* والمشاة. ثم ألغى ولده لويس المشاة، وشرع يستأجر السويسريين، واستمر غيره في هذا الخطأ الذي هو علة الخطر الذي حاق بتلك المملكة،

* فرسان في العصور الوسطى يحملون أسلحة ثقيلة. (المترجم).

كما يمكن أن يشاهد الآن. وفرنسا حين أشهرت أمر السويسريين بهذه الصورة وألغت المشاة، وجعلت فرسانها تحت رحمة العون الأجنبي، أفلت عزم جميع قواتها. لأنها، وقد اعتادت على أن تحارب مع قوات سويسرية، أصبحت تعتقد أنها عاجزة عن الغزو من دونها، ومن هنا حدث أن أصبحت قوة الفرنسيين غير كافية لمقاومة السويسريين، ولا يخاطرون بحرب ضد غيرهم من دون عون هؤلاء. وهكذا أصبحت جيوش الفرنسيين من النوع الخليط؛ جزء منها مأجور، وجزء منها وطني. وإذا تناولنا هما معاً فإن هذا الخليط يفوق بدرجة كبيرة الجيوش التي تتكون كلها من القوات المأجورة، أو من القوات المساعدة، غير أنه دون القوات الوطنية الخاصة إلى حد كبير. ولعل في هذا المثال الكفاية؛ لأن مملكة فرنسا لو حاولت المحافظة على التنظيم العسكري لشارل، أو طورته، لظلت منيعة الجانب. ولكن البشر مع عوزهم في الحكمة يبدئون أموراً جديدة، وحين يجدون أول طعم لها طيباً لا يدركون ما فيها من سم، كما سبق أن بينت في صدد الحميات غير المستقرة.

ولذا كان الأمير الذي لا يعرف في إمارته الأخطار وهي في دور ظهورها أميراً غير حكيم في حقيقة الأمر؛ وهذه الحكمة لا توهب إلا للقليل من الناس. وإذا نظرنا بعين الاعتبار إلى العلة الأولى لسقوط الإمبراطورية الرومانية فإننا نردها إلى مجرد استئجارهم القوات المأجورة من الغوت لأننا نلفى قوة الدولة الرومانية وقد أخذت في الضعف منذ ذلك التاريخ، وتضاف جميع قدرة الرومان هذه إلى الغوت.

وعلى ذلك أختتم حديثي بأن أقول: لا سلامة لأمير من دون قواته الوطنية، ومن دونها يتوقف مصيره على الحظ تمامًا، ما دام لا يملك وسيلة للدفاع يوثق بها حين تضطرب الأمور. لقد ذهب الحكماء دائمًا وقالوا: «لا شيء عند البشر مزعزع ولا يدوم مثل ولايات دعامتها الشهرة وليست قوتها الخاصة. إن قوات الأمير الوطنية تتكون إما من الرعايا وإما من المواطنين، وإما من أتباعه هو، وجميع ماعدا هؤلاء أجير ومساعد. ومن اليسير معرفة طريقة تنظيم المرء لجيوشه الوطنية لو أننا درسنا مناهج الأمراء الأربعة التي سلف ذكرها، ونظر المرء بعين الاعتبار إلى كيف نظم فيليب، أبو الإسكندر الأكبر، وكثير من الجمهوريات والحكام المطلقين قواتهم. ويعد هذه الأمثلة لسنا في حاجة إلى أن نعالج الموضوع بالتفصيل.

الفصل الرابع عشر

واجبات الأمير فيما يتعلق بموضوع فن الحرب

ولذا ينبغي للأمير ألا تكون له غاية ولا فكرة، ولا يتخذ لدراسته موضوعاً آخر، سوى الحرب، وتنظيمها، ونظامها؛ لأن هذا هو الفن الوحيد اللازم لمن يقود، وله من المزية ما يكفل المحافظة على أولئك الذين ولدوا أمراء؛ فضلاً عن أنه يعين غالباً الرجال العاديين حتى يبلغوا مرتبة الإمارة، ويرى المرء من ناحية أخرى، أن الأمراء يفقدون ولايتهم حين يفكرون في الترف أكثر من الأسلحة. إن العلة الأولى لضياع الولايات هي احتقار هذا الفن، وطريقة كسبها تكون في حذقه .

لقد أصبح فرنشيسكو سفورتسا بحسن تسليحه دوق ميلانو، بعد أن كان فرداً عادياً. وانحدر أبنائه بعزوفهم عن نصب الحرب ومشقته إلى أشخاص عاديين بعد أن كانوا أدواقاً؛ لأن من بين مساوئ عدم التسليح الأخرى التي تنجم عنه أن يجعل المرء مزدري، وهذا أمر من الأمور التي يجب أن يقي الأمير نفسه شرها، وسنشرح ذلك فيما بعد وشتان ما بين رجل مسلح ورجل أعزل، مهما كان الأمر. فليس بمعقول أن نتوهم أن رجلاً مسلحاً يطيع راغباً رجلاً أعزل، أو أن أي رجل أعزل يسلم بين أتباع مسلحين. ومن المستحيل أن يعمل الاثنان معاً في وئام؛ لأن أحدهما مزدري، والآخر شاك. ولذا كان من غير الممكن للأمير يجهل الشئون الحربية أن يوقره جنوده،

أو أن يكونوا محل ثقته، فضلاً عن المصائب التي سبق ذكرها منذ وقت قصير.

ولذا ينبغي للأمير ألا يدع التدريب العسكري يغيب عن باله وخطره، وأن يتمرن عليه في زمن السلم أكثر منه في وقت الحرب؛ وهذا ما يستطيع أن يصنعه بطريقتين: الأولى عملية، والأخرى نظرية. فمن الناحية العملية، يجب، بجانب تنظيم رجاله وتدريبهم، أن يشغل نفسه بالقنص باستمرار، وبهذا يعود بدنه على المشاق، وهو في نفس الوقت يدرس طبيعة البلاد انحدار الجبال، وانفراج الوديان، ومواقع السهول، ويفهم طبيعة الأنهار والمستنقعات؛ وعليه أن يتوفر على جميع هذه الأمور لدرجة كبيرة. ولهذه المعرفة فائدتها من ناحيتين. فالأولى، أن يدرس المرء العلم ببلاده، ويتسنى له أن يعرف بصورة أفضل كيف يدافع عنها. والأخرى، أن يستطيع أن يفهم في يسر أي مكان آخر قد تلزم ملاحظته، وذلك عن طريق المعرفة والخبرة اللتين يكتسبهما في إقليمه هو، حتى إنه يقدر على أن يصل بسهولة من معرفة البلاد في إقليمه إلى معرفة الأقاليم الأخرى. ويعوز الأمير الذي يفتقر إلى هذه المهارة أول لوازم القائد؛ لأن هذه المعرفة هي التي تعلمه كيف يلقي العدو، وكيف يعسكر، وكيف يقود الجيوش، وكيف يضع خطة المعارك، وكيف يحاصر المدن مظفراً.

لقد كان من حلال المديح الأخرى التي خلعتها الكتاب على فيلوپومين Philopoemen أمير الأخيين Achaei أنه لم يكن في وقت السلم يفكر في شيء سوى مناهج الشئون العسكرية. وكثيراً ما كان يقف ويسأل حين يكون مع صحبه خارج المدينة: لو فرض أن كان العدو فوق ذلك التل وألفينا أنفسنا مع جيشنا، فأينا قد يكون أمتع

موقعًا؟ كيف نستطيع أن نقرب من العدو ونحافظ على نظامنا من دون أن نتعرض للخطر؟ وإذا أردنا التقهقر فكيف ينبغي لنا أن نفعل؟ وإذا تقهقر العدو فكيف يجب علينا أن نتعقبه؟ وكافيلوبومين يضع أمامهم، وهم يسرون، جميع الاحتمالات التي يمكن أن يتعرض لها جيشه، ويستمع إلى رأيهم، ويدلي برأيه، ويؤيده بالحجج، حتى إنه وهو يقود جيوشه بالفعل لم يتعرض قط لأي حادث لم يكن مستعدًا له، والفضل في ذلك يرجع إلى هذه التأملات التي لم تنقطع.

ولكن ينبغي للأمير حتى يشحذ ذهنه أن يقرأ التاريخ، ويدرس أعمال العظماء، ويرى كيف سلكوا في شأن الحرب، ويفحص أسباب انتصاراتهم، وعلل هزائمهم؛ لكي يحذو حذو الظافرين، ويتحاشى هزيمة المقهورين، وذلك لكي يسير، أولاً وقبل كل شيء، على الدرب الذي سار فيه بعض الرجال في الماضي، الذين قد اتخذوا قدوة لهم عظيمًا كان موضع ثناء كبير، وتمجيد عظيم، ووضعوا أعماله وأفعاله نصب أعينهم على الدوام؛ فكما يقولون: قلد الإسكندر الأكبر أخيل Achilles وقيصر Caesar الإسكندر، واقتدى سكيبيو Scipio بقورس. وكل من يقرأ حياة قورش التي كتبها إكسنوفون xenophon يرى كيف قلد سكيبيو في حياته قورش تقليدًا ماجدًا، وكيف تحلى بالصفات التي وصف بها إكسنوفون قورش من طهر، ورقة، وحلاوة شمائل، وكرم.

إن الأمير الحكيم ينبغي له أن ينهج على نفس هذه المناهج، ولا يخلد في زمن السلم إلى الخمول أبدًا، ويدأب على الاستفادة منها بمهارة حتى يمكن أن يجده الحظ، حين يتبدل، مستعدًا لمقاومة ضرباته، وأن يسود وقت الشدة.

الفصل الخامس عشر

فيما يلام عليه الرجال، أو يمدحون له، وبخاصة الأمراء منهم

ولا يبقى الآن سوى النظر فيما هي مناهج الأمير وقواعده فيما يتصل برعاياه وصحبه. ولما كنت أعلم أن كثيرين قد كتبوا في هذا الموضوع، فإني أخشى أن تعد كتابتي غرورًا، حين تختلف عن آراء الآخرين، وبخاصة في هذا الموضوع. ولكن يبدو لي أن الأصح، وأنا أقصد كتابة شيء يفيد الذين يعلمون، أن أصل إلى حقيقة الموضوع الواقعية من دون تخيلها. إن كثيرين قد تخيلوا جمهوريات وإمارات لم تقع عليها عين إنسان، ولم يعرف لها وجود واقعي؛ لأنه شتان ما بين الحياة كما نعيشها والحياة كما ينبغي أن نعيشها؛ ولذا فإن من يترك ما يفعل بالفعل إلى ما ينبغي أن يفعل سوف يعلم أنه يسعى بالأحرى إلى حتفه من دون بقاءه. إن المرء الذي يريد أن يحترف الخير في كل الأمور سوف يحزن بين الأشرار، وهم كثيرون جدًا. ولذا يتحتم على الأمير الذي ينبغي المحافظة على نفسه أن يعرف كيف لا يكون خيرًا، وكيف يستخدم هذه المعرفة، وكيف لا يستخدمها، تبعًا للضرورة.

ولذا فإنني حين أترك جانبًا الأمور التي تخص الأمير الخيالي فحسب، وأتكلم عن تلك الأمور الواقعية، أقرر أن ذكر جميع الناس، وبخاصة الأمراء الذين هم أسمى منزلة من غيرهم، يكون لخصال معينة تجر عليهم اللوم، أو تكسبهم الثناء؛ ولذلك يعتبر الناس واحدًا سخيًا والآخر مقتدرًا، واحدًا يعطي بسخاء وغيره جشعًا، واحدًا قاسيًا

وغيره شفيقًا، واحدًا لا يحفظ كلمته والثاني جديرًا بالثقة، واحدًا رعيديًا والآخر عنيفًا جريئًا، واحدًا رقيقًا والثاني متغطر ساء، واحدًا فاسقًا والآخر عفيفًا، واحدًا صريحًا والآخر ذاهية، واحدًا صعب المراس والثاني سهل القياد، واحدًا جادًا في الأمور والآخر مستهترًا، واحدًا متدنيًا والآخر غير متدين، وهكذا... وأعلم أن كل إنسان سوف يسلم بأن الأمير يكون أكثر استحقاقًا للثناء لدرجة عالية إذا كانت له جميع هذه الخصال السابقة التي تذكر في باب الخير. ولكن لما كان من غير الممكن أن تكون جميعها له، أو يراعها؛ لأن الظروف البشرية لا تسمح بذلك، كان من الضروري له أن يكون حكيماً حكمة تكفي لأن يتحاشى شر فضيحة تلك الرذائل التي قد تفقده الولاية، ويقي نفسه، إذا أمكن ذلك، شر تلك التي لن تفقده إياها. ولكن إذا لم يتسن له ذلك يمكنه أن يهملها ويحترس تمامًا من هذه التي قد تسبب هلاكه. إلا أن الواجب عليه ألا يعبأ بتأتا بالتعرض لفضيحة تلك الرذائل التي من دونها قد تصعب المحافظة على الدولة؛ لأن الإنسان إذا نظر نظرة صحيحة إلى الأمور فإنه يجد أن بعضها الذي يبدو فضائل قد يرمينا في التهلكة لو سرنا عليه، وبعضها الآخر الذي يبدو رذائل تنجم عنه سلامة للإنسان أكبر، وهناءة أعظم.

الفصل السادس عشر

في السخاء والتقتير

والآن حين أبدأ بأولى الصفات التي سبق أن ذكرتها أقول: قد يكون من الأمور الصالحة أن يعتبر الأمير سخياً؛ إلا أن السخاء كما يفهمه الخلق سوف يؤذيكَ؛ لأنه إذا استخدم بمعناه، وبالطريقة الصحيحة، فلن يعلم أحد عن سخائه، وينتج عنه عار الرذيلة المضادة. ولكن المرء الذي يريد أن يشتهر بالسخاء بين الناس يجب ألا يتخلى عن كل نوع من التظاهر الفخم، وإلى مثل هذا الحد سوف يستهلك أمير له هذا الطبع جميع موارده، ويضطر في نهاية الأمر إذا أراد أن يحافظ على اشتهاره بالسخاء إلى أن يفرض على شعبه ضرائب باهظة، ويأخذ إتاوات، ويبدل كل ما في وسعه ليحصل على المال. وهذا ما سوف يجعل رعاياه يأخذون في كراهيته، ويكون قليل الاحترام حين يصبح فقيراً، حتى إنه حين يكون قد أضرب كثيرين بسخائه، ولم يفد به غير قليلين، يحس بأول اضطراب بسيط يحدث، ويحذر به كل خطر عند الشدائد. فإذا أقر ذلك ورغب في أن يبدل تقليده، فسوف يتهم في الحال بالتقتير.

ولهذا يجب على الأمير الذي لا يستطيع أن يمارس فضيلة السخاء هذه من دون أن تعرف عنه، ألا يخشى، إذا كان حكيماً، أن يقبل الاشتهار بالتقتير، وسوف يعد سخياً أكثر من ذلك على مر الزمن، حين نرى أن اقتصاده جعل دخله كافياً لكي يستطيع أن يدافع عن نفسه

ضد أولئك الذين يشنون عليه الحرب، وأن يقوم بأعمال عظيمة من دون أن يثقل كاهل شعبه، حتى إنه يصبح سخياً حقاً بالنسبة إلى من لم يأخذ منهم شيئاً، وعدد هؤلاء لا يحصى، ومقتراً بالنسبة إلى كل من لم يعطهم، وهؤلاء قليلون. إننا لم نر في أيامنا عملاً عظيماً إلا وقد صدر عن أولئك الذين عدوا مقترين، ولقد تحطم غير هؤلاء جميعاً. إن البابا يوليوس الثاني، مع أنه قد استفاد من شهرته بالسخاء لكي يبلغ البابوية، لم يجر وراء هذا الصيت فيما بعد حتى يمكنه أن يقوى على القيام بالحرب. ولقد استمر ملك فرنسا الحالي في حروب كثيرة جداً من دون أن يفرض ضريبة استثنائية؛ لأن ما اقتصده في مدة طويلة غطى ما زاد على نفقاته. ولو عرف ملك إسبانيا الحالي بالسخاء لما أمكنه أن يتوفر على هذه الأعمال الكثيرة ويوفق فيها.

ولهذه الأسباب يجب ألا يعبأ الأمير كثيراً حين يعرف بالتقتير، لو أراد أن يتجنب اغتصاب رعيته، وأن يكون قادراً على حماية نفسه، وألا يصبح فقيراً وحقيراً، وألا يضطر إلى أن يصبح جشعاً. إن هذا التقتير رذيلة من تلك الرذائل التي تمكنه من الحكم. وإذا قيل: إن قيصر بلغ الإمبراطورية بالسخاء، وكثيرين غيره صعدوا إلى أعلى منزلة بالسخاء، أو بالاشتهار به، فإني أراه قائلاً: إما أنك أمير حديث العهد، وإما أنك تسير على درب الإمارة. وفي الحالة الأولى، يكون هذا السخاء مضراً؛ وفي الحالة الأخرى، يتحتم عليك بالتأكيد أن تحسب في عداد الأسخياء. لقد كان قيصر واحداً من أولئك الذين رغبوا في أن يصبحوا سيد روما. ولكنه لو عاش ولم يعدل في نفقاته بعد أن بلغ مراده فلربما هدم الإمبراطورية وقوضها. وإذا قيل: كان ثمة كثير من الأمراء الذين أتوا بجيوشهم أموراً عظيمة، وكانوا يعدون

مع ذلك أسخياء إلى أقصى حد، فإني أجيب قائلاً: إما أن الأمير ينفق من ثروته الخاصة ومن مال الرعية، وإما من ثروة الآخرين؛ وفي الحالة الأولى، ينبغي أن يعرف بالحرص في النفقة، وفيما عدا ذلك يجب أن يهتم بأن يكون سخيًا جدًا. والسخاء ضروري جدًا للأمير يسير مع جيوشه ويعيش على النهب، والغنيمة والفدية، وينفق من ثروة غيره؛ لأن جنوده لن يسيروا خلفه من دون سخاء. ويمكنك أن تكون بالفعل سخيًا جدًا بما ليس ملكًا خاصًا لك أو لرعاياك، كما كان قورش، وقيصر، والإسكندر؛ لأنك حين تنفق ثروة الآخرين فلن يحط ذلك من سمعتك، بل يعلي من ذكرك، ولا يؤذيك سوى النفقة من ثروتك الخاصة فحسب؛ وليس ثمة ما يحطم نفسه بنفسه كالسخاء؛ لأنه كلما كان المرء سخيًا فقد القدرة على أن يكون سخيًا، ويصبح إما فقيرًا حقيرًا، وإما جشعًا بغيضًا، وذلك حتى يتحاشى الفقر. وأهم ما يجب أن يتقي الأمير شره من بين جميع هذه الأمور أن يصبح حقيرًا أو بغيضًا؛ والسخاء يقودك إلى إحدى هاتين الحالتين. ولذلك كان الأحكم أن يشتهر الأمير بالتقتير الذي يجبر عليه اللعنة من دون البغضاء، وألا يضطر إلى أن يعرف بالجشع؛ لأن هذا يولد الخزي والكراهية معًا.

الفصل السابع عشر

في الشدة واللين

وفيما إذا كان الأفضل أن يكون الأمير محبوبًا أو مهوبًا

وحين نمضي قدمًا إلى الصفات الأخرى التي سبق ذكرها أقول:
يجب على كل أمير أن يرغب في أن يعد رحيمًا لا شديدًا، وأن يهتم بالأمر
يسىء استخدام هذه الرحمة بأي حال. لقد عد قيصر بورجا شديدًا،
ولكن شدته هي التي أتت بالنظام والوحدة في رومانا، وجعلت الأمن
يستتب فيها، والولاء يسود. وإذا نظرنا إلى هذا الأمر نظرة صحيحة
فإننا نرى أن قيصر كان في الواقع أكثر رحمة من الشعب الفلورنسي
الذي أتاح تدمير بستويا Pistoia لكي يتحاشى أن يعرف بالشدة. ولذا
يجب على الأمير ألا يعبأ بأن يتهم بالشدة ما دامت من أجل المحافظة
على وحدة رعاياه وولائهم؛ لأنه حين يشتد مع عدد قليل جدًا يكون
أرحم من هؤلاء الذين يتمادون في اللين فيتيحون قيام القلاقل، ومن
هنا تراق الدماء، ويحدث النهب. وهذه الأمور كقاعدة تضر جماعة
في مجموعها، بينما تنفيذ الإعدام في أفراد لا يؤذي غيرهم. ونجد من
بين جميع الأمراء أن الأمير الحديث العهد لا مناص له من الاشتهار
بالشدة؛ لأن الولايات الجديدة حافلة بالأخطار دائمًا، ومن هنا يقول
فرجيل Virgil على لسان ديدو Dido:

إن الحالة العصبية حيث شئوني
وعرش غير ثابت الأركان، ودولة في طفولتها،

- مثل هذا النوع من الظروف القاسية،
يقسرنى على وضع الحاميات في كل اتجاه،
وحماية أملاكي بكل ما أوتيت من سلطان،
وحراسة الشواطئ حراسة غيورة.

ومع ذلك يجب أن يكون حذرًا فيما يعتقد وفيما يقدم عليه، وألا
يظهر بمظهر الوجل يخيفه ظله، وأن يسير إلى الأمام في اعتدال
وحكمة ولين؛ حتى لا تجعله الثقة المفرطة غير حذر، أو الريية
المسرفة غير محتمل.

ومن هنا تظهر مشكلة المفاضلة بين أن يحب الأمير أكثر مما
يهاب وبين أن يهاب أكثر مما يحب. والجواب هو: ينبغي للمرء
أن يكون محبوبًا ومهوبًا معًا. ولكن لما كان من الصعب أن تسير
الخلتان معًا، فإن مهابته أسلم بكثير من محبته، إذا لم يكن بد من أن
تعوزنا خلة واحدة منهما. لأنه يمكن القول عن البشر عمومًا إنهم
يجحدون المعروف، ويهذرون في الكلام، ويظهرون غير ما يظنون،
ويقلقون على تحاشي الخطر، ويطمعون في الكسب؛ وطالما تفيدهم
فهم أعوانك تمامًا، يفدونك بدمهم ومتاعهم وحياتهم ولدهم،
حين تكون الضرورة إليهم بعيدة. ولكن حين تقترب ينقلبون عليك،
ويهلك الأمير الذي لم يعول إلا على وعودهم من دون أن يتهيأ
بالعدد الأخرى؛ لأن الصداقة التي تكتسب عن طريق الشراء لا عن
طريقة عظمة الروح ونبلاها تشتري، ولكنها غير مأمونة، ولن تستخدم
لمصلحتك عند الطوارئ. إن البشر يترددون في الإساءة إلى من
يحبون أقل من ترددهم في إيذاء من يهابون؛ لأن إلزام الحب الذي

يشده يقطع في كل فرصة من فرص مصلحتهم؛ لأن البشر أنانيون. ولكن الفزع من العقاب الذي لا يخفق أبدًا يحفظ الخوف ويصونه.

وما زلنا نقول بأنه ينبغي للأمير أن يجعل نفسه مهوبًا بطريقة إذا لم تكسبه الحب فهي تقيه من البغضاء على أي حال؛ لأن الخوف وعدم الكراهية قد يسيران معًا سيرًا حسنًا، ويصل إليهما على الدوام إنسان يمتنع عن التدخل في ملكية مواطنيه ورعاياه ونسائهم. وحين يضطر الأمير إلى أن يعدم فردًا ما فدعه يفعل ذلك حينما يكون هناك تبرير صحيح له، وعله واضحة. ولكنه يجب أن يمتنع أولاً عن أخذ ملكية غيره؛ لأن نسيان البشر لموت آبائهم أيسر عندهم من نسيان ضياع ملكهم. ثم إن المعاذير أيضًا للاستيلاء على ملكية لا تعوز الأمير أبدًا؛ والذي يأخذ في العيش على النهب سوف يجد دائمًا سبيًا ما لا غتصاب متاع سواء، بينما علل الإعدام أكثر ندرة، وتمضي أسرع من غيرها.

ولكن من الضروري ضرورة قصوى ألا يعبأ الأمير بأن يعرف بالشدة حين يكون مع جيشه ويقود عددًا كبيرًا من الجنود؛ لأنه لا يستطيع من دون هذه الشهرة أن يحافظ على جيش متحد أو مستعد للقيام بأي واجب. إن من بين أعمال هانيبال Hannibal الجديرة الذكر أنه بالرغم من أن جيشه كان عرمرمًا، ويتكون من رجال من جميع الشعوب، وكانوا يحاربون في بلاد أجنبية، فإنه لم يقع أي خلاف فيما بينهم، أو ضد الأمير، سواء في السراء أم في الضراء. ولا يمكن أن يعزى ذلك إلى غير شدة هانيبال غير اللينة التي جعلته، مع قدراته الأخرى التي لا تحصى، عظيمًا ومهوبًا باستمرار عند جنوده. وما كانت هذه القدرات كافية لأن تعطي ذلك الأثر لو لم يكن شديدًا.

إن الكتاب الذين لا ينظرون في الأمور يعجبون من ناحية بأعماله، ويعيرون عليه علتها وهي شدته، من ناحية أخرى. ومن حالة سكيبيو Scipio يظهر صدق القول بأن قدرات هانيبال غير الشدة لم تكن تكفي لأن يأتي بالأعمال التي قام بها. (إن سكيبيو مشهور لا بالنسبة إلى عصره فحسب، ولكن ذكره باقية في كل عصر). لقد ثارت عليه جيوشه في إسبانيا، لا لسبب غير شففته المسرفة التي أتاحت لجنوده من الفوضى أكثر مما كان يتفق مع النظام العسكري. ولقد وجه إليه فابيوس ماكسيموس Fabius Maximus اللوم في السناتو على ذلك وأطلق عليه: «مفسد الجندية الرومانية». لقد دمر لوكر Locra أحد ضباط سكيبيو فلم يقتص لها، ولم يعاقب الضابط على قحته؛ والسبب ببساطة هو طبيعته السهلة، حتى إن أحد أعضاء السناتو، وقد أراد أن يعذره في المجلس قال: إن هناك رجالاً كثيرين يعرفون بالأحرى كيف لا يخطئون أكثر من معرفتهم كيف يصححون خطأ سواهم. إن هذا الاستعداد كان يمكنه بمرور الزمن أن يطفئ شهرة سكيبيو وعظمته لودأب عليه في عهد الإمبراطورية، ولكن هذه الخصلة الضارة لم تختف فحسب في عهد السناتو، بل أصبحت مجداً له.

وعلى ذلك أقول في الختام، فيما يتعلق بمهابة الأمير ومحبة، إن الناس يحبون بإرادتهم الحرية، ولكنهم يخافون برغبة الأمير؛ والأمير العاقل يجب عليه أن يركن إلى ما في سلطانه لا سلطان سواه، وما عليه سوى السعي إلى مجانية ما يجلب عليه الكراهية، كما أوضحنا.

الفصل الثامن عشر

في الطريقة التي يحفظ الأمراء بها عهدهم

كل امريء يدري كم يثنى الناس على أمير يحفظ العهد، ويعيش مستقيمًا، ومن غير مكر. ولكن التجربة في أيامنا تدل على أن أولئك الأمراء، الذين أتوا أعمالًا عظيمة هم الذين لم يراعوا الوفاء إلا قليلًا، وهم من استطاعوا أن يشوشوا العقول بالمكر، ومن تمت لهم الغلبة على هؤلاء الذين قد اتخذوا الأمانة قاعدة لهم.

ويجب أن تعلم أن ثمة طريقتين للعراك، واحدة قانونية، والأخرى بالقوة؛ الأولى للبشر، والأخرى للحيوانات المفترسة. ولما كانت الأولى لا تكفي غالبًا، فيجب أن يلجأ المرء إلى الثانية. ولذلك كان من الضروري على الأمير أن يعرف معرفة جيدة كيف يستخدم كلتا الطريقتين. لقد علم الكتاب القدامي وأوحوا بذلك إلى الأمراء، فهم يروون كيف أن أخيل Achilles، وكثيرًا ممن سواه من أولئك الأمراء القدامي قد أرسلوا إلى كيرون Chiron لينشئهم تبعًا لنظامه ويربيهم. ويقصدون من صورة هذا المعلم ذي النصف البشري والنصف الحيواني أن يبينوا أن الواجب على الأمير أن يعرف كيف يستخدم الطبعيتين معًا، وأن واحدة منهما، ومن دون الأخرى، لا تدوم.

ولما كان الأمير، لذلك، مضطرًا إلى أن يعرف جيدًا كيف يسلك كالحيوان، فيجب عليه أن يحاكي الثعلب ويقلد الأسد؛ لأن الليث لا يستطيع أن يحمي نفسه من الفخاخ، والثعلب لا يقدر على أن يدافع

عن نفسه ضد الذئاب. ولذا يجب على المرء أن يكون ثعلبًا ليعرف الفخاخ، وأنني يكون ليثًا ليخيف الذئاب. إن أولئك الذين يرغبون في أن يكونوا أسودًا فحسب لا يفهمون هذا الأمر. ولذا يجب على الحاكم العاقل ألا يحفظ عهدًا يكون الوفاء به ضد مصلحته، وحين تنتهي الأسباب التي جعلته يرتبط به. إن هذا المبدأ قد يكون شرًا لو كان جميع البشر خيرين، ولكن لما كانوا جميعًا أشرارًا، ولئن يراعوا وفاءهم معك؛ فأنت لذلك في حل من أن تحفظ عهدك معهم. إن الحاكم الذي رغب في أن يظهر عذرًا مموهاً لعدم نجز وعده لم يخفق قط في أن تكون عنده أسباب شرعية لذلك. وهناك عدد لا حصر له من الأمثلة الحديثة لذلك يمكن أن نضربها، وتبين كم مرة انتهكت فيها حرمة السلم، وكم من وعود أصبحت باطلة لعدم وفاء الأمراء بها، وترينا أن هؤلاء الذين قد استطاعوا تقليد الثعلب أحسن تقليد نجحوا أحسن نجاح. ولكن من الضروري أن يكون في وسعنا إخفاء هذا الخلق جيدًا، وأن تصبح مموهاً عظيمًا، وخداعًا كبيرًا؛ والناس من البساطة بحيث إنهم على استعداد لأن يذعنوا للضرورات الراهنة، حتى إن الذي يخدع سوف يجد دائمًا أولئك الذين يجيزون لأنفسهم أن يخدعوا.

ولن أذكر سوى مثل واحد حديث. لم يفعل الإسكندر السادس شيئًا سوى أن غرر بالناس، ولم يخطر له غير ذلك، ووجد دائمًا الفرصة. ولم يبرز عليه إنسان قط في القدرة على إعطاء الضمانات، وتوكيد الأمور بأغلظ الأيمان، ولم يكن ثمة من فاقه في عدم الوفاء بها. ولقد كان يوفق في حيله على الدوام، ومهما كانت الظروف؛ لأنه فهم جيدًا هذا المظهر للأمور.

ولذلك فليس من الضروري لأمر أن يستحوذ على جميع الخصال التي سبق ذكرها، ولكن من اللازم جداً أن يبدووا حائزاً لها . وقد أجزؤ على القول بأن التحلي بها مع مراعاتها على الدوام أمر خطير، ولكن التظاهر بالتحلي بها أمر مفيد. وعلى ذلك، فإن من الخير أن يبدو الأمير رحيماً، وفيّاً، حلو الشمائل، صادقاً، متديناً، وأن يكون كذلك أيضاً. ولكن يجب أن يكون عقلك مهياً لأن تستطيع أن تتغير إلى أضداد هذه الخصال حين تحتاج إلى أن تصبح غير ذلك. ويجب أن يكون مفهوماً أن الأمير، وبخاصة حديث العهد، لا يمكن أن يراعي جميع تلك الأمور التي تعد خيراً عند الناس؛ لأنه يضطر في كثير من الأحيان إلى أن يأتي أعمالاً ضد الوفاء، وضد الإحسان، وضد حلاوة الشمائل، وضد الدين؛ لكي يحافظ على الدولة. ولذا يجب أن يكون عقله معداً لأن يكيف نفسه مع الريح التي تهب، وكما تملي تغيرات الحظ. ويجب، كما سبق أن قلنا، ألا ينأي عما يكون خيراً، إذا أمكن ذلك، إلا أنه يجب عليه أن يكون قادراً على أن يقترب الشر إذا اضطر إليه.

ويجب أن يعني الأمير عناية فائقة ألا يخرج من بين شفّتيه ما لا يحفل بالخصال الخمس التي سبق أن ذكرتها. وينبغي له أن يظهر لمن يراه، ويبدو لمن يسمعه، متوفراً على الرحمة، والصدق، والاستقامة، والدين. ولا شيء أشد ضرورة من أن يتظاهر بالخصلة الأخيرة؛ فالناس عامة يحكمون بما يرون بأعينهم أكثر مما يحكمون بما يلمسون بأيديهم؛ لأن كل امرئ يستطيع أن يرى، ولكن قلة قليلة تملك أن تلمس ما أنت عليه، وتلك القلة لن تجرؤ على أن تعارض الكثرة التي يحميها جلال الملك. في أعمال البشر كافة، وبخاصة

أعمال الأمراء، الغاية تبرر الوسيلة؛ لأنه لا يمكن نقض هذا الحكم. ولذا فليهدف الأمير إلى الظفر بالولاية، والمحافظة عليها، وسوف يكون الحكم على الوسائل دائماً بأنها شريفة، ويشئ عليها الجميع، لأن العامة تحكم دائماً بالمظاهر الخارجية للأشياء، وبناتج الحدثان؛ ولا يتكون هذا العالم إلا من هؤلاء. والقليل الذي يكون غير ساذج ينعزل حينما تجد الكثرة في الأمير شيئاً يجمعهم حوله. إن أميراً معيناً في عصرنا، ويحسن ألا نذكر اسمه، لم يفعل شيئاً قط سوى التوصية بالسلام، والدعوة إلى الوفاء، وهو في الحقيقة عدو لدود لهما؛ ولو أنه راعى أيّاً منهما لأضاع ذلك دولته، وأخسر اسمه، في مناسبات عديدة.

الفصل التاسع عشر

في أنه يجب على الأمير مجانية أن يكون مُزْدَرَى أو مُبْغَضًا

ولكن لما كنت قد تحدثت الآن عن أهم الخصال التي نحن بصدد البحث فيها، فسوف أعالج الآن بالتفصيل وبصورة عامة الخصال الأخرى. يجب على الأمير، كما قررت منذ برهة وجيزة، مجانية تلك الأمور التي تجعله مُبْغَضًا أو مُزْدَرَى؛ وحين يوفق في هذا الأمر يكون قد قام بدوره، ولن يجد في الرذائل الأخرى أي خطر. وأول ما يجعله مبغضًا، كما قلت، أن يكون جشعًا، وأن يغتصب ملكية رعاياه ونساءهم؛ وهذا ما يجب أن يمتنع عن فعله. وما دام المرء لا يعتدي على ملكية عامة الناس أو شرفهم فإنهم يعيشون راضين، ولن يكون عليه سوى أن يصارع مطاعم فئة قليلة، ومن السهل أن يكبح جماحها بطرق شتى، ويصبح الأمير مُزْدَرَى حين يظن به عدم الثبات، والتزق، والتخنث، والجبن، وضعف العزيمة؛ وهذا ما يجب أن يتقى شره اتقاء الربان لصخرة مهلكة. وعلى ذلك، فمن واجبه أن يدأب على أن تظهر أعماله للعيان العظيمة، والقدرة، والجِد، والجلد. وليذر ما يقضي به وهو يحكم رعاياه لا يقبل النقض، ويتمسك بقراراته حتى لا يمكن لإنسان أن يفكر في خداعه أو غشه.

إن الأمير الذي يخلق هذا الرأي عن نفسه يفوز بصيت عظيم، ومن الصعب التآمر على امرئ نابه جدًا، ولن يعتدي عليه معتد في سر، طالما يعرف عنه أنه قدير، وتجله رعيته؛ لأن الأمير يجب عليه أن

يخشى أمرين: الأول داخلي يتصل برعاياه، والآخر خارجي يتعلق بالقوى الأجنبية. أما الأمر الثاني، فهو يستطيع أن يحمي نفسه منه بالأسلحة الصالحة، والأصدقاء الأوفياء، وهؤلاء لن يعدمهم أبدًا لو كانت عنده الأسلحة الصالحة. أما الأمور الداخلية، فستظل هادئة على الدوام ما لم تجعلها مؤامرة تضطرب، ولم يحدث اضطراب من الخارج. وحتى لو فرض أن سعت قوى خارجية إلى الهجوم عليه فإنه سيصمد دائمًا، ويمكنه أن يحتمل كل هزة، لو أنه حكم وعاش كما قررت، ومثلما بينت بما فعل نابيس الإسبرطي. وأما بالنسبة إلى رعاياه، فما زال عليه أن يخشى أن يتآمروا عليه سرًا، هذا إذا لم تعمل رعيته بنصائح من الخارج. وهذا ما يمكن أن يُتَقَى شره جيدًا بمجانبة البغض والازدراء، والإبقاء على الشعب راضيًا عنه؛ ومن الضروري نجز هذا الأمر، كما ذكرت بالتفصيل. وإن أنجع علاج لأمر من هذه المؤامرات هو ألا تبغضه كتلة الشعب؛ لأن كل متآمر يعتقد دائمًا أنه سيرضي الشعب باغتيال الأمير. ولكن لو رأي المتآمر أنه حين يفعل ذلك يسيء إلى كتلة الشعب فإنه يخشى القيام بمثل هذا العمل؛ لأن الصعاب التي لا بد من أن يواجهها المتآمرون لا تدخل تحت حصر. وتدل التجربة على أن مؤامرات كثيرة جدًا قد وقعت ولكن القليل منها قد نجح؛ لأن كل من يتآمر لا يستطيع أن يعمل بمفرده، ولا أن يجد شركاء له إلا بين أولئك الساخطين، وسرعان ما تقدم للمتبرم الوسيلة لإرضاء نفسه حين تكشف له عن قصدك؛ لأنه حين يفضح نيتك يمكنه أن يأمل في أن يوفر لنفسه كل شيء يبغيه. وهو حين ينتظر ربحًا معينًا من وراء ذلك، ولا يرى، من ناحية أخرى، سوى أمر مشكوك فيه، محفوف بالخطر، فلا بد من أن يكون أحد اثنين: إما أن يكون صديقًا نادرًا لك، وإما أن يكون عدوًا لدودًا للأمير،

وذلك إذا وفى بعهده معك. وليبان هذا الأمر بإيجاز أقول: لا شيء من جانب المتآمر يفزعه سوى الخوف، والغيرة، والريبة، والعقاب. ومن جانب الأمير نجد أن جلال الحكم، والقوانين، وحماية الأعوان والولاية تذود عنه وتحرسه. وحين نضيف إلى هذه الأمور إرادة الشعب الطيبة نحو الأمير يستحيل أن يكون لدى أي إنسان طيش التآمر عليه؛ لأنه بينما لا بد للمتآمر من أن يشعر بالخوف عامة قبل تنفيذ مؤامراته، فمن الضروري أيضًا أن يشعر بالخوف بعد أن ينجزها؛ فالشعب عدوه، وعلى ذلك فهو لا يستطيع أن يأمل في أي ملاذ له.

ويمكننا أن نضرب أمثلة لذلك لاحصر لها، ولكني سأكتفي بمثل يذكره آباؤنا. لقد تآمر الكنسكي Caneschi على هانيبال بنتيفولي Annibale Bentivogli أمير بولونيا، وجد هانيبال الحالي؛ ولم يخلف من أقرباء سوى جيوفاني Giovanni الذي كان طفلًا حينذاك. ولكن بعد الاغتيال غضب الشعب وقتل الكنسكي. ولقد كان الدافع له على ذلك هو الإرادة الطيبة التي تمتع بها بيت بنتيفولي في ذلك الحين. وقد كانت هذه عظيمة حتى إن أهل بولونيا حين سمعوا أن فردًا من أسرة بنتيفولي موجود في فلورنسا، وكان يظن أنه ابن حداد، ذهبوا ليحضروه، ومنحوه حكم المدينة، وظل يحكمها حتى شب جيوفاني وأصبح في السن المناسبة ليمسك بزمام الحكم، فلم يكن ثمة خليفة لهانيبال يستطيع أن يحكم الدولة بعد موته.

وعلى ذلك فالنتيجة هي أن الأمير في غير حاجة إلى أن يعبأ كثيرًا بالمؤامرات حينما يكون استعداد الشعب نحوه استعدادًا طيبًا، ولكن حين يناوئونه ويشعرون نحوه بالكراهية؛ فالواجب على الأمير حينئذ

أن يخشى كل فرد، ويخاف كل شيء. إن الولايات المنظمة تنظيمًا صالحًا، والأمراء العقلاء، قد عرفوا وثابروا على ألا يسوقوا النبلاء إلى القنوط منهم، وأن يرضوا الشعب ويبقوا عليه راضيًا؛ لأن هذا من أهم الأمور التي لا بد من أن يعالجها أمير.

وفرنسا من بين الممالك ذات النظام والحكم الصالحين في وقتنا الحاضر، وفيها نجد عددًا لا يحصى من التعاليم الصالحة، وعليها تعتمد حرية الملك وسلامته. وأول هذه التعاليم البرلمان وسلطته؛ لأن من أقام تلك المملكة، وقد كان يدري عن مطامع النبلاء الكبار وغطرستهم، عدّ من الضروري وضع لجام في أفواههم ليكبح جماحهم. ولما كان يعرف، من ناحية أخرى، الكراهية التي تحس بها كتلة الشعب نحو النبلاء، ودعامتها الخوف، وحين أراد أن يؤمنهم لم يرغب في أن يجعل هذا الأمر من هموم الملك الخاصة حتى يخلصه من السخط الذي قد يتولد بين النبلاء حين يجمال الشعب، ومن تبرم الشعب حين يجمال النبلاء. ولذلك أقام فيصلاً ثالثًا كبج جماح النبلاء على الدوام، وجمال الشعب وهو دونهم، ومن غير مسئولية مباشرة للملك. وما كان في الإمكان اتخاذ أي إجراء أحكم من هذا وأفضل منه، أو احتياط لسلامة الملك والمملكة يفوق ذلك. ومنه نستطيع أن نستخلص قاعدة أخرى جديدة بالمراعاة، ألا وهي واجب إناطة الأمراء بتنفيذ الواجبات غير الشعبية بغيرهم، وأن يستخلصوا لأنفسهم الجميل. وختامًا أقول مرة أخرى: على الأمير أن يوقر نبلاء ولايته، ولكن عليه ألا يجعل العامة تناوئته.

وقد يبدو للبعض أننا حين ننظر في مجرى حياة كثير من الأباطرة الرومان وموتهم أنها أمثلة تعارض رأبى، حين نجد بعضًا

منهم وقد عاش دائماً عيشة النبلاء وأظهروا قوة في الطبع عظيمة، ومع ذلك فقدوا إمبراطوريتهم، وقتلهم رعاياهم الذين تأمروا عليهم. وعندما أرغب في الرد على هذه الاعتراضات فإنني أناقش خصال بعض الأباطرة مبيناً أن علة هلاكهم لم تختلف عما قررت، وأنظر أيضاً في الوقت نفسه إلى الأمور التي لا بد من أن يلاحظها كل من يقرأ عن أعمال هذه العصور. وأكتفي بتناول جميع هؤلاء الأباطرة الذين تعاقبوا في الإمبراطورية من ماركوس Marcus الفيلسوف حتى ماكسيمينوس Maximinus؛ وهؤلاء هم: ماركوس، وولده كومودوس Commodus، وپرتيناكس Pertinax، وجوليانوس Julianus، وسفيروس Severus، وولده أنطونينوس Antoninus، وولده كاراكلا Caracalla، وماكرينوس Macrinus، وهليوجابالوس Heliogabalus، والإسكندر، وماكسيمينوس Maximinus، وأول ما يلاحظ أن أباطرة الرومان كانت أمامهم صعوبة ثلاثة وهي لزوم تحمل صرامة الجنود وجشعهم، وهذا ما بلغ حداً أصبح فيه علة سقوط كثيرين من الأباطرة؛ فقد كان إرضاء الجنود والشعب معاً أمراً غير مستطاع في يسر، بينما كان على الأمراء غير الأباطرة مناهضة مطامع الطبقة الأرستقراطية وشطط الشعب. لأن الشعب يحب الدعة؛ وبالتالي يجب الأمراء المسالمين، ولكن الجنود يؤثرون الأمير ذا الروح العسكري والأنفة، الصارم الجشع، ويرغبون في أن يمارس هذه الخصال مع الشعب حتى يمكنهم أن يحصلوا على أجور مضاعفة، ويجدوا متنفساً لجشعهم وصراحتهم. وهكذا حدث أن هلك على حد سواء أولئك الأباطرة الذين لم يعرف عنهم ما يمكنهم، فطرة أو اكتساباً، من المحافظة على ضبط الطرفين معاً، وأن العدد الكبير منهم الذي ارتفع إلى الإمبراطورية

وكان حديث عهد بها، وعرف صعوبات هذين الميلين المتعارضين
 اقتصر على إرضاء الجنود، ولم يفكر في الإساءة إلى الشعب إلا
 قليلاً. وليس في هذا الاختيار بد عندما يكون الأمراء غير قادرين على
 مجانبة مقت طرف من الطرفين، فعليهم أولاً أن يحاولوا ألا تمقتهم
 كتلة الشعب، فإذا لم يستطيعوا نجز ذلك فيجب أن يستخدموا كل
 وسيلة لكي يفروا من كراهية الطرف الأقوى. ولذا فإن هؤلاء الأباطرة
 الذين كانوا حديثي عهد، ومن هنا كانوا في حاجة إلى خطوات
 خاصة، ناصروا الجنود أكثر من أن يناصروا الشعب. وتتوقف فائدة
 ذلك أو عدمها، بحال ما، على معرفة الأمير لكيفية المحافظة على
 شهرته الطيبة بينهم. وكانت نتيجة هذه الأسباب أن نهايات ماركوس
 وبرتيناكس والإسكندر كانت سيئة، فقد كانوا جميعاً متواضعين،
 محبين للعدالة، أعداء للصرامة، أهل رقة ولطف. ولقد عاش
 ماركوس وحده عزيزاً، ومات كريماً؛ لأنه صعد إلى الإمبراطورية
 بحقه الوراثي، ولم يكن الفضل في ذلك يعود إلى الجيش. أو إلى
 الشعب. وزيادة على ذلك، كان يتحلى بكثير من القدرات التي جعلته
 موقراً، وأبقى طوال حياته على الفريقين كل في مكانه لا يتعداه، ولم
 يكن مبغضاً ولا مزدري قط. ولكن نصب برتيناكس إمبراطوراً بغير
 إرادة الجنود، وهؤلاء وقد ألفوا حياة الفوضى في عهد كومودوس
 لم يستطيعوا أن يسايروا الحياة الشريفة التي أراد برتيناكس
 ألا يتجاوزوها. ولذلك أصبح بغيضاً. وإلى ذلك يضاف
 الازدراء لكبر سنه، ومن هنا سرعان ما سقط في أول إدارته.

ومن هنا يظهر أن الأعمال الصالحة تكسب الكراهية كما يكسبها
 الشر؛ ولذلك فالغالب أن يضطر الأمير الذي يريد أن يحتفظ بالولاية

إلى أن يقترب الشر، كما سبق أن قلت؛ لأنه حينما يفسد أحد الأطراف، سواء الشعب أو الجيش أو النبلاء، أيًا كان من تعتبره ضروريًا لك من أجل المحافظة على مركزك، يجب عليك أن تسير على هواه، وتتبع رضاه، وحينذاك تؤذيك الأعمال الطيبة. ولكن لتحدث عن الإسكندر الذي كانت له تلك الطيبة حتى قيل إن من بين الأمور الأخرى التي يثنى عليه لها أنه لم يعدم فردًا من دون محاكمة عادلة في السنين الأربع عشرة التي حكمها. ومع ذلك اعتبر متخثًا، ورجلًا أجاز لأمه أن تسيطر عليه، وهكذا تردى في هاوية الازدراء، وتآمر عليه الجيش وقتله.

وحين ننظر بعين الاعتبار، من ناحية أخرى، إلى خصال كومودوس، وسفيروس وأنطونينوس، وكارا كلا، وماكسيمينوس، نجد أنهم كانوا قساة جشعين لأقصى حد، ولم يكن ثمة إساءة لكيلا يفرضوها على الشعب حتى يرضوا الجنود، وكانت خواتيمهم جميعًا سيئة، ما خلا سفيروس. لقد كانت له، على أي حال، هذه القدرات التي مكنته من أن يحكم حكمًا سعيدًا، بأن حافظ على الجنود أصدقاء له، على الرغم من أنه بطش بالشعب؛ وذلك لأن قدراته جعلته أهلاً لإعجاب الجنود والشعب معًا، حتى أصبح الشعب، إلى حد ما، دهشًا مذهولًا له، بينما الجنود يجلونه وهم راضون.

ولما كانت أعمال هذا الحاكم عظيمة وجديرة بمراعاة أمير حديث العهد، فإني سأبين بإيجاز كيف أنه أجاد استخدام خصال الثعلب والأسد، فلا بد للحاكم من أن يقلد طبيعتهما، كما سبق أن قلت، لما كان سفيروس، الذي كان قائد الجيش في سلاثونيا، يعرف تراخي الإمبراطور جوليانوس، فقد أقنع القوات بأن من الخير أن يذهبوا

إلى روما للقصاص لمقتل پرتيناكس الذي كان الحرس الپريتوري قد قتله. وسار بجيشه إلى روما تحت ستار هذا الادعاء، ومن دون أن يكشف عن طمعه في العرش، ووصل إلى إيطاليا قبل أن يعرف أنه قد تحرك إليها. وعند وصوله إلى روما انتخبه السناتو إمبراطورًا بدافع الخوف، وقتل جوليانوس. وبعد هذه البداية، لم يبقَ بينه وبين السيطرة التامة على الإمبراطورية سوى مواجهة عقبتين؛ واحدة في آسيا حيث نجرينوس Nigrinus على رأس الجيوش الآسيوية وقد أعلن نفسه إمبراطورًا، وأخرى في الغرب حيث كان ألبينوس Albinus الذي طمع في الإمبراطورية. ولما كان يعد إظهار عدائه لهما معًا أمرًا خطرًا قرر أن يخدع ألبينوس الذي كتب إليه برغبته في أن يشاركه فخر اختيار السناتو له إمبراطورًا، ويحث إليه بلقب قيصر، ونودي به شريكًا لسفيروس بأن تداول السناتو الأمر. لقد حمل ألبينوس هذه الأمور كافة محمل الصدق، ولكن بعد أن هزم سفيروس نجرينوس وقتله، وجعل الأمور تستتب في الشرق، رجع إلى روما، وفي السناتو اتهم ألبينوس بأنه سعى غدراً إلى اغتياله، من دون أن يراعي النعم التي أخذها منه، وقال إنه مضطر لذلك إلى أن يذهب إليه ويعاقبه على هذا الجحود. وحيث ذهب لملاقاته، وهناك جرده من ولايته وحياته معًا.

وكل من يفحص أعمال سفيروس فحصًا مفصلاً سيلفاه أسدًا مفترسًا، وثعلبًا مكرًا لأقصى حد، وسيجده مهوبًا جليلاً عند الجميع، ولا يبغضه الجيش؛ ولن يعجب لقدرته، وهو الأمير الحديث العهد، على نيل سلطان كبير، مادام ذكره العظيم حماه على الدوام من المقت الذي يمكن أن يولده جشعه في نفوس الشعب. ولكن ولده أنطونينوس كان رجلًا صاحب قدرة فائقة، وخصال جعلته جديرًا بإعجاب الشعب، ومحبوًا كذلك من الجنود؛ لأنه كان رجل حرب،

وأهلاً لأن يتحمل أشد الصعاب، ينظر شَرْزاً إلى تناول ما لذ وطاب من الطعام، ويستنكف من كل ترف آخر؛ وجميع هذه الخصال جعلت الجيوش كافة تحبه. وعلى أي حال، فإن وحشيته وقسوته كانتا عظيمتين جداً، ولم يسمع بمثلهما أحداً؛ لأنه قد تسبب في قتل عدد كبير من أهل ألساندرية Alessandria وأهل روما، بعد أن أعدم كثيراً من الأفراد، فأصبح الناس كافة يمقتونه، ويخشاه أولئك الذين كانوا حوله، حتى قتله قائد لفرقة من فرق المائة وسط جيشه. ومن هنا يجب أن يلاحظ أن هذا النوع من الموت الذي ينتج عن فعل متعمد لرجل وطد العزم عليه لا يمكن أن يتقي الأمراء شره؛ لأن كل من لا يخشى الموت لا يمكن أن يقدم على هذا الأمر. ولكن الأمير في غنى عن الخوف الشديد منه؛ لأن أمثال هؤلاء الرجال نادرون لأبعد حد، وليس عليه سوى أن يحذر من أن يأتي أي إساءة جسيمة في حق إنسان يستخدمها ضده، أو في حق الذين هم حوله في خدمته، كما فعل أنطونيوس الذي قتل أخاً لقائد تلك الفرقة بوقاحة، وكان يهدده كل يوم، مع أنه كان لا يزال يحتفظ به في حرسه؛ ولقد كان في عمله هذا بلاهة وخطورة كما أثبت الواقع.

ولكن لننتقل إلى كومودوس الذي كان في مقدروه أن يحتفظ بالامبراطورية في يسر، فقد كان وريثاً لها؛ لأنه ابن ماركوس. لقد كان من الممكن أن يكتفي باقتفاء أثر أبيه حتى يرضى الشعب والجنود معاً، ولكن وقد كانت ميوله صارمة وحشية عمل على مجاملة الجنود وفوضاهم؛ حتى يستطيع أن يمارس جشعه مع الشعب. ومن ناحية أخرى، أصبح حقيراً في نظر الجنود جراء عدم محافظته على كرامته، وذلك بنزوله في كثير من الأحيان إلى الساحة لينازل المصارعين،

ولأعمال شائنة أخرى قام بها لا تليق بالكرامة الإمبراطورية. ولما كان بغيضاً، من ناحية، ومحتقراً، من ناحية أخرى، تأمروا عليه وقتل. وتبقى خصال ماكسيمينوس لتصويرها. لقد كان رجل حرب لأقصى حد. ولما كانت الجيوش قد ضاقت ذرعاً بتخنث الإسكندر التي تحدثنا عنها منذ مدة وجيزة، فقد انتخب بعد موته إمبراطوراً. ولم ينعم بذلك طويلاً؛ لأن أمرين جعلاه بغيضاً وحقيراً. الأول، أصله الوضيع؛ فقد كان راعيًا في تراقيا Thrace. وكان هذا معروفًا للناس كافة، وسببًا لازدراؤه في جميع النواحي. والآخر، أنه أجل عند بدء عهده، الذهاب إلى روما لكي يتبوأ العرش الإمبراطوري، واشتهر بالصرامة الشديدة، وقد اقترف أعمالاً قاسية عديدة بوساطة نواب حكامه Praefecti في روما وفي أنحاء الإمبراطورية الأخرى. ولذلك فإن الاستياء من وضاعة أصله، والمقت خوفًا من وحشيته، دفعوا الكافة إلى الحنق عليه، فتآمرت عليه إفريقيا أولاً، ثم السناتو، وجميع شعب روما وإيطاليا فيما بعد، وإلى هؤلاء انضم كذلك جنوده الذين غضبوا لقسوته حين كانوا يحاصرون أخيلية Aquileia، وألفوا حصارها أمرًا عسيرًا؛ وحين رأوا أن له أعداء كثيرين جدًا، لم يخشوه إلا قليلًا، وقتلوه.

ولن أطرق الحديث عن هليوجا بالوس Heliogabalus، وماكرينوس Macrinus، وجوليانوس Julianus الذين بطش بهم بغتة وقد كانوا حقراء تمامًا، ولكن سوف أختتم هذا المقال بأن أقول: إن أمراء عصرنا يلقون في ولاياتهم صعوبة أقل بكثير من هؤلاء من حيث اضطرارهم في حكمهم إلى إرضاء جنودهم لدرجة خارقة؛ لأنه على الرغم من أنه يجب عليهم أن ينظروا إليهم بعين الاعتبار الخاص،

فإنه سرعان ما تسوى أي صعوبة؛ لأنه ليس بين هؤلاء الأمراء من يملك جيوشًا مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بإدارة الحكم وحكم مقاطعاتهم كما كانت جيوش الإمبراطورية الرومانية. فإذا كان من الضروري حينذاك أن يكون إرضاء الجنود أمرًا أحرى بهم من إرضاء الشعب، فما كان السبب سوى أن الجنود كانوا يستطيعون أن يفعلوا أكثر من الشعب. والآن فيما خلا الأتراك وممالك مصر، إرضاء الشعب أكثر من الجنود ألزم للأمراء كافة؛ لأن الشعب يستطيع أن يفعل أكثر من الجنود. وأستثني سلطان الأتراك؛ لأنه يحتفظ حوله دائمًا باثني عشر ألفًا من المشاة، وخمسة عشر ألفًا من الفرسان، وعلى هؤلاء تتوقف سلامة المملكة وقوتها. وكان من الضروري له أن يؤجل أي اعتبار آخر حتى يحتفظ بهؤلاء أصدقاء له. وكذلك كانت الحال بالنسبة إلى مملكة الممالك، فلما كانت بأسرها في أيدي الجنود، فالسلطان ملزم بأن يحتفظ بصداقتهم بغض النظر عن الشعب. وعلينا أن نلاحظ أن ولاية السلطان هذه تختلف عن ولايات الأمراء الآخرين، فهي تشبه ولاية البابا المسيحية التي لا يمكن أن نسميها مملكة وراثية، أو مملكة حديثة العهد؛ لأن أبناء الأمير الراحل ليسوا ورثته، ولكن خليفته في الحكم هو من يقع عليه اختيار أصحاب النفوذ فيها. ولما كان هذا النظام قديمًا، فلا يمكن أن نسميه مملكة حديثة العهد؛ لأنه خلو من الصعاب التي توجد في الإمارات الجديدة. وعلى الرغم من أن الأمير جديد، فإن قواعد هذه الولاية قديمة ومنظمة حتى إنها تتلقاه كما لو كان هو سيدها الوراثي.

ولكن حين نرجع إلى موضوعنا أقول: إن كل من يدرس الحجة السابقة يرى أن أسباب سقوط الأباطرة الذين ذكرناهم كانت إما الكراهية وإما الازدراء، ويلاحظ كذلك كيف حدث أن بعضًا منهم

سار على نهج، وسار الآخرون على نهج غيره، وفي كلا المنهجين وفق بعض، ولم يوفق الآخرون. لقد كانت محاولة برتيناكس والإسكندر تقليد ماركوس محاولة بلا فائدة وضارة؛ لأنهما معاً أميران حديثا العهد، وكان ماركوس أميراً وراثياً. وكانت الحال كذلك بالنسبة إلى كارا كلا، وكومودوس، وماكسيمينوس فقد كان تلقيدهم سفيرس مضرًا لهم، ماداموا لا يملكون القدرة الكافية لأن يقتفوا آثاره. وعلى ذلك لا يستطيع أمير حديث العهد أن يقلد أعمال ماركوس في ولايته، كما أن محاكاته لأعمال سفيرس غير ضرورية له، ولكن عليه أن يأخذ عن سفيرس تلك الأمور الضرورية لتأسيس ولايته، وعن ماركوس ما يفيد ويمجده ليحفظ ولايته قد تم قيامها وسلمت.

الفصل العشرون

فيما إذا كانت القلاع والأمور الأخرى التي غالبًا ما يلوذ بها الأمراء مفيدة أو ضارة

لقد ذهب بعض الأمراء من أجل سلامة حكم ممتلكاتهم إلى نزع السلاح من مواطنيهم، وحافظ غيرهم على البلاد التابعة له مقسمة إلى أجزاء، ومنهم من أثاروا العداوات فيما بينها، ومنهم من سعى إلى أن يكسب في جانبه أولئك الذين ارتابوا في أمرهم عند بدء حكمهم، وفئة شيدت القلاع، وأخرى دكتها وهدمتها. ومع أن المرء لا يستطيع أن يقضي بكم محدد بصدد هذه الأمور من دون أن يدخل في تفاصيل الولاية التي سيطبق عليها مثل هذا الحكم، إلا أنني سوف أتحدث عنها بهذه الطريقة العامة كما يتيح الموضوع.

لم يعرف قط أمير جديد نزع السلاح من رعاياه، بل على العكس، كان يسلحهم دائمًا حين يجدهم عزلاً؛ لأنك حين تسلخهم تصبح هذه الأسلحة لك خاصة، ويخلص لك أولئك الذين ارتبت في أمرهم، ويظل من كانوا مخلصين كما هم، ويصبح من كانوا مجرد رعايا لك أنصاراً. ولما كان تسليح الرعية بأسرها غير ممكن، فإنك حين تمنح مزايا حمل السلاح لبعض منها تستطيع أن تعامل سواهم معاملة أسلم؛ ومن شأن هذا الاختلاف في المعاملة الذي يعرفونه أن يجعل رجالك أكثر عرفاناً بجميلك. أما سواهم فسوف يعذرونك عندما يذهبون إلى أن أولئك الذين عليهم واجبات أهم وعندهم

أخطار أكبر هم الذين يقدرّون بالضرورة تقديرًا أعظم. ولكن حين تنزع السلاح منهم فإنك تأخذ في الإساءة إليهم، وتبدو أنك لا تثق بهم، إما لأنهم جبناء، وإما لعوز في الثقة بهم، وكلا هذين الرأيين يولد كراهيتك في نفوسهم. ولما كنت لا تستطيع أن تبقى أعزل، فإنك مضطر إلى أن تلجأ إلى الجندية المأجورة التي سبق أن قررنا قيمتها. وحتى لو فرضنا أنها صالحة، فلا يمكن أن تكفي عددًا لأن تدافع عنك ضد الأعداء الأقوياء، وضد رعاياك المشكوك فيهم؛ ولذلك فإن رعايا الأمير الجديد في ملك جديد يكونون دائمًا مسلحين، عند الاستيلاء عليه، كما قلت، والتاريخ حافل بأمثلة لذلك.

ولكن حين يكسب أمير ولاية جديدة يلحقها بولايته القديمة، فمن الضروري، حينئذ، أن ينزع السلاح من تلك الولاية فيما عدا أولئك الذين وقفوا بجانبه عند الاستيلاء عليها؛ وحتى هؤلاء يجب على الأمير حين تلوح الفرصة، وفي الزمن المناسب، أن يجعلهم ضعفاء متخشين، وأن يهيئ الأمور حتى تكون جميع أسلحة الولاية الجديدة في أيدي جنوده الذين يعيشون بالقرب منه في ولايته القديمة.

إن أجدادنا وأولئك الذين اعتبروا حكماء اعتادوا أن يقولوا: لزمت الكتل السياسية وسيلة للسيطرة على بستويا Pistoia، والقلاع وسيلة للسيطرة على بيزا؛ ومن أجل هذا الغرض أثاروا الخلافات في بعض المدن التابعة لهم حتى يستطيعوا ملكها بيسر. إن هذا الأمر كان عملاً صالحاً بلا ريب في تلك الأيام حينما كان في إيطاليا توازن للقوى، ولكن يبدو لي أنه ليس بفكرة صالحة للوقت الحاضر؛ لأنني لا أعتقد أن الأحزاب التي توجد بهذه الصورة تأتي

بأي فائدة، بل على العكس، فمن المؤكد أن تضييع في الحال هذه المدن المنقسمة بهذه الكيفية عندما يدنو العدو؛ لأن الكتلة الحزبية الضعيفة تنضم دائماً إلى جانب العدو، وغيرها لن يستطيع البقاء.

وأعتقد أن البنادقة، تدفعهم هذه الدوافع التي ذكرت، أثاروا الفرقة في المدن الخاضعة لهم بين كتلتي الجولفيين Guelf والجبلينيين Ghibelline. ومع أنهم لم يتيحوا لهم أن يصلوا إلى حد إراقة الدماء إلا أنهم شجعوا هذه الخلافات، حتى إن أبناء هذه المدن حين ينشغلون بخصوصياتهم الخاصة لا يعملون ضد البنادقة. وعلى كل حال، فإنهم لم يجنوا أي فائدة من وراء ذلك، كما شاهدنا عندما قامت فئة من أولئك المواطنين بغتة واستبسلت واستولت على الولاية، وذلك بعد الهزيمة في فايبلا. ومثل هذه الطرائق، فضلاً عن ذلك، تدعو إلى الظن بقوة الأمير؛ لأن هذه الفرقة لن تتاح أبداً في حكم قوى. هي مفيدة فقط في زمن السلم؛ لأنه يسهل على الأمير بهذه الوسيلة أن يحكم رعيته، ولكن حين تأتي الحرب تتضح مغالطة مثل هذه السياسة في الحال.

ولا ريب في أن الأمراء الذين يتغلبون على الصعاب والمعارضة يصحبون عظماء؛ ولذا فإن الحظ وبخاصة إذا أراد أن يجعل أميراً جديداً عظيماً، وهو في أمس الحاجة إلى نيل الشهرة من أمير وراثي يثير الأعداء، فيضطر الأمير إلى أن يشن حروباً ضدهم، حتى يكون لديه سبب للتغلب عليهم؛ وبذلك يصعد إلى أعلى بوساطة ذلك السلم الذي قد جلبه أعداؤه له. إن هناك كثيرين يظنون، لهذا السبب، أن الأمير العاقل ينبغي له، حين تواتيه الفرصة، أن يثير العداوة بدهاء؛ حتى يزيد بقمعها من عظمة نفسه.

إن الأمراء، وبخاصة المحدثون منهم، قد وجدوا في أولئك الرجال الذين نظروا إليهم بعين الارتياح في أول عهدهم بالسلطان إخلاصًا أكثر وفائدة أكبر مما وجدوا في أولئك الذين كانوا موضع ثقتهم بادئ الأمر. إن باندولفو بتروتشي Pandolfo Petrucci أمير سيينا قد حكم ولايته بمن ارتاب فيهم أكثر مما حكمها بغيرهم. ولكننا لا نستطيع أن نطنب في الحديث في هذا حيث إنه استطرد في الموضوع. ولن أقول سوى أنه لو كان هؤلاء الرجال الذين كانوا أعداء عند قيام حكم جديد من النوع الذي يحتاج إلى سند للمحافظة على مركزه، فإن الأمير يتسنى له أن يكسب جانبهم بسهولة جدًا؛ وهم أشد اضطرابًا من غيرهم إلى أن يخدموه بإخلاص؛ لأنهم يعلمون أن من واجبه أن يبطلوا بأعمالهم الرأي السيع للأمير فيهم، والذي سبق أن كونه عنهم. وهكذا سوف يستخلص الأمير منهم دائمًا مساعدة أعظم من التي تعود عليه من أولئك الذين يهملون مصالحه وهم يخدمونه؛ لأنهم أكثر اطمئنانًا إليه من غيرهم.

ولكنني لن أغفل عن ذكر الأمير الذي أخذ ولاية جديدة بفضل معونة سرية تلقاها من سكانها، ما دام الموضوع يتطلب ذلك، وأقول: عليه أن ينظر جيدًا بعين الاعتبار إلى الدوافع التي ساقته أولئك الذين آثروه بذلك، فإذا لم تكن هي الحب الطبيعي له، بل كانت فقط تبرمهم من الولاية كما كانت، فإنه سيجد عناء عظيمًا وصعوبة كبيرة لكي يحتفظ بصدقتهم؛ لأن إرضاءه لهم من المستحيل.

وحين نفحص علة ذلك في الأمثلة التي نستخلصها من الأزمنة الحديثة والقديمة نرى أن كسب صداقة أولئك الذين كانوا راضين عن الوضع القديم، ومن هنا كانوا أعداء لنا عند بدء العهد الجديد،

أسهل بكثير من كسب صداقة أولئك الذين أصبحوا أصدقاء للأمير وساعدوه على احتلالها؛ لأنهم كانوا ساخطين على العهد القديم.

لقد كان من عادة الأمراء لكي يستطيعوا السيطرة على ولايتهم في سلام أن يقيموا القلاع حتى تكون بمثابة حكمة وشكيمة* لأولئك الذين يبيتون لهم شراً، ولتكون لهم ملجأ أميناً ضد الهجوم المباغت. إنني أوافق على هذه الطريقة لأنها استخدمت قديماً. ومع ذلك فقد رأينا يقولو فيتللي يهدم في عصرنا قلعتين في شيتا دي كاستللو Citta di Castello لكي يحتفظ بهذه الولاية، وجيدو بالدو Guid' Ubaldo دوق أورينويدك الحصون كافة في ممتلكاته التي كان قيصر بورجا قد طرده منها، وذلك حين رجع إليها ورأى أن ضياع ولايته مرة أخرى أصعب من دونها منه بها. وعند العودة إلى بولونيا اتخذ آل بتيفولي مثل هذه الإجراءات. ولذلك فإن فائدة القلاع تتوقف على العصور التي توجد فيها، فهي إن صلحت من ناحية، أضرت من ناحية أخرى. وعلى ذلك، يمكن مناقشة المشكلة بهذه الصورة: ينبغي للأمير الذي يخاف شعبه أكثر مما يخاف الأجانب أن يشيد القلاع، ولكن على من يخشى الأجانب أكثر مما يخشى الشعب أن يعمل من دونها، إن قلعة ميلانو التي بناها فرنشيسكو سفورتسا قد قدمت، وسوف تقدم، لبيت سفورتسا متاعب دونها أي اضطراب آخر في تلك الولاية. ولذلك فإن خير الحصون جميعاً هو ما يؤسس على حب الشعب للأمير. فعلى الرغم من أنك قد تملك القلاع، فإنها لن تنقذك إذا كان الشعب يبغضك. فعندها يشهر السلاح عليك، ولن تكون ثمة حاجة له إلى الأجانب ليساعدوه. إننا لا نرى في أيامنا أن القلاع أفادت أي حاكم

* الحكمة (بفتح الحاء والكاف والميم) سيور تحيط برأس الفرس لقيادته والسيطرة عليه، والشكيمة هي الحديدية المعترضة فمه. (المترجم).

سوى كونتيسة فورلي Forli حين قتل زوجها الكونت جيرولامو (٢١٣) Girolamo. إنها استطاعت بفضل قلعتها أن تفر من قومة الشعب، وأن تنتظر المعونة من ميلانو، وأن تستعيد الولاية. لقد كانت الظروف حينذاك على حالة لا تمكن أجنبيًا من أن يمد إلى الشعب يد المساعدة، ولكن الكونتيسة لم تجن منها فيما بعد فائدة كبيرة حين هاجمها قيصر بورجا وكان الشعب يعاديها، وتحالف مع الأجنبي. لقد كان الأسلم للكونتيسة من ملك القلاع ألا تكون موضع كراهية الشعب. ولهذا السبب فإني أثني على من يقيم القلاع كما أثني على من لا يقيمها، وألوم أي إنسان يستوثق من القلاع ولا يهتم كثيرًا بكراهية الشعب له.

الفصل الحادي والعشرون

كيف ينبغي للأمير أن يسلك لينال الشهوة؟

لا شيء أدعى إلى احترام أمير احترامًا جد كبير مثل الأعمال العظيمة، والخارقة عامة. ولدينا مثال لذلك في عصرنا هو فرديناند ملك أراجون، وملك إسبانيا الحالي. ويمكن أن نطلق عليه أميرًا حديث العهد؛ لأنه أصبح أول ملك في العالم المسيحي بعد أن كان ملكًا ضعيفًا، وذلك لما أصاب من شهرة ومجد. وإذا نظرت إلى أعماله فسوف تجدتها جميعًا عظيمة جدًا، وتلقى بعضها خارقًا للعادة. لقد هجم على غرناطة في أول عهده، وكانت تلك الحملة دعامة مجده. وقام بذلك أولًا وهو خالي البال، ومن دون أن يخشى تدخلًا من أحد، وجعل عقول البارونات في كاستيل تنشغل بهذه الحملة، حتى إنها حين كانوا يفكرون فيها لم يدر بخلداهم تجديد الأوضاع السياسية. وهكذا نال شهرة وسلطانًا عليهم من دون أن يتبهبوا إلى ذلك. لقد استطاع بمال الكنيسة والشعب أن يصون جيوشه، وبذلك الحرب الطويلة أن يضع أسس قوته العسكرية التي جعلته مشهورًا فيما بعد. وبالإضافة إلى ذلك، لجأ إلى الضراوة الدينية حتى يستطيع أن يقوم بحملات أعظم من الحملة السابقة، وطرده المغاربة من مملكته واجتثهم منها، وذلك تحت ستار الدين دائمًا؛ وهو في الحقيقة مثل سياسي فذ. ووراء الستار نفسه أيضًا هاجم إفريقيا، وقام بحملته في

إيطاليا، وهجم على فرنسا فيما بعد؛ حتى إنه كان يتكرر باستمرار عظام الأمور التي جعلت رعاياه لا يقر لهم قرار وفي حيرة من أمره ومشغولين بملاحظة النتائج. لقد كانت هذه الأعمال ينبثق الواحد منها من الآخر، فلم تدع قط فرصة للناس لكي يقر قرارهم ويعملوا ضده.

ومما يفيد الأمير فائدة جلى أن يضرب بعض الأمثلة البارزة لعظمته في الإدارة الداخلية، كتلك التي تنسب إلى برنابو الميლاني . ففي الحياة المدنية يجب على الأمير أن يجد تلك الوسيلة للشواب أو العقاب التي يكثر الحديث عنها، وذلك حين يقوم فرد ما بعمل خارق، سواء أكان خيرًا أم شرًا. وعليه أن يسعى في كل عمل، أولاً وقبل كل شيء، إلى أن يكسب لنفسه الاشتهار بالعظمة والامتياز .

ويجبل الأمير إجلالاً أكبر حين يكون صديقاً صدوقاً، أو عدواً لدوداً، أي حينما يعلن من دون تحفظ تأييده لفرد من الأفراد، أو عداؤه له. إن هذه السياسة دائماً أكثر نفعاً من أن يظل على الحياد؛ لأنه إذا أخذت في القتال دولتان متجاورتان فهما إما دولتان يخشى انتصار المنتصرة منهما، وإما غير ذلك. وفي أي من هاتين الحالتين يحسن بك أن تفصح عن موقفك وتعلن الحرب؛ لأنه إذا لم تفصح عن موقفك في الحالة الأولى فسوف تقع فريسة للمنتصر منهما، وذلك يطيح للدولة التي غلبت ويرضيها، ولن يكون عندك سبب لموقفك، أو لديك ما تدافع به عن نفسك. ولن يلقاك أحد؛ لأن كل منتصر لن يرغب أصدقاء يرتاب فيهم، ولم يمدوا إليه يد المساعدة وقت الشدة. وكل مغلوب لن يلقاك؛ لأنك لم تشهر السلاح وتخاطر بنفسك في قضيته.

لقد أرسل الإيتوليون أنتيوكس إلى بلاد الإغريق لطرد الرومانيين منها؛ وأرسلوا الخطباء إلى الأخيين الذين كانوا أصدقاء الرومانيين

ليشجعوهم على أن يظلوا على الحياد. ومن ناحية أخرى، استمالهم الرومانيون إلى أن يحملوا السلاح بجانبهم. وعرض الأمر على مجلس الأخيين للتداول فيه؛ حيث سعى سفير أثينوكس إلى أن يستميلهم إلى البقاء على الحياد، ورد السفير الروماني على ذلك قائلاً: «أما ما يقال إنه خير الأمور لدولتكم وأكثرها فائدة لها، فلا شيء أبعد منه عن الحقيقة؛ لأنكم إذا لم تتدخلوا في الحرب فستصبحون فريسة للمتصرف فيها، ولا فضل لكم أي فضل، ودون أن تنالوا أي ذكر».

وما يحدث دومًا هو أن ينبغي منك أن تظل على الحياد من لا يكون صديقًا لك أو حليفًا، ويطلب منك من يكون صديقك أن تفصح عن موقفك بأن تشهر السلاح. ويسلك عادة ضعاف العزيمة من الأمراء طريق الحياد لكي يتحاشوا الأخطار القائمة، وغالبًا ما يدمرهم هذا النهج. ولكن حين يعرب الأمير بصراحة عن موقفه ويؤيد أحد الطرفين فإنه إذا انتصر من انضممت إليه، حتى لو كان قويًا وبقيت تحت مشيئته، فإنه يدين لك بالمعروف، وتكون صداقة بينكما قد قامت. ولا يصل عدم الأمانة بالرجال أبدًا إلى حد أن يبطشوا بك أنت من أحسنت إليهم. وفضلًا عن ذلك، فإن النصر يندر أن يتم بصورة تجعل المنتصر في حالة ينقض فيها جميع نوااميس الخير، وبخاصة بالنسبة إلى العدالة. ولكن إذا هزم حليفك فإنك تلوذ به وسوف يساعدك طالما يقدر على ذلك، وتصبحان رقيقين في طالع واحد قد يصعد من جديد. وفي الحالة الثانية، حينما يكون هذا المتحاربان ممن لا تخشى أنت المنتصر منهما من أي ناحية، فما يزال الأحكم بالنسبة إليك أن تنضم إلى واحد منهما؛ لأنك تسير إلى هلاك أحدهما

بمساعدة من كان ينبغي له أن ينقذه لو كان عاقلًا؛ فإذا انتصر فإنه يظل تحت مشيئتك، ومن المستحيل ألا ينتصر بمساعدتك.

وهنا ينبغي لنا أن نلاحظ أن واجب الأمير أن يحذر دائمًا أن يتحالف مع من هو أقوى منه لكي يعتدي على غيره، إلا إذا حملته الضرورة على ذلك كما سبق القول؛ لأنه إذا ظفر بالنصر فيظل تحت سلطانه، وواجب الأمراء أن يتحاشوا ما وسعهم الأمر، أن يكونوا تحت مشيئة غيرهم وإرادته. لقد اتحد البنادقة مع فرنسا ضد دوق ميلانو مع أنه كان في المستطاع أن يتجنبوا ذلك التحالف الذي أفضى إلى دمارهم. ولكن عندما لا يستطيع الأمير مجانية ذلك، كما حدث في حالة الفلورنسيين حين ذهب البابا وإسبانيا بجيوشهما للهجوم على لمبارديا، فينبغي للأمير حينئذ أن يتحالف للأسباب التي سبق ذكرها. ولا تدع حكومة تعتقد أنها تستطيع على الدوام أن تسير على سياسة سليمة واحدة، فالأولى بنا أن ندعها تعتقد أن جميع السياسات مشكوك فيها. ونجد هذا الأمر في طبيعة الأشياء؛ فإن الإنسان لا يحاول أبدًا أن يتجنب صعوبة من دون أن يرتطم بغيرها؛ ولكن الحكمة في أن تكون قادرًا على معرفة طبيعة الصعاب، وتعتبر الصالح منها أقلها ضررًا.

وعلى الأمير أيضًا أن يكرم المواهب، وأن يؤثر القادرين ويحمي من يبرزون في كل فن. وفضلاً عن ذلك، فواجبه أن يستنهض مواطنيه على ممارسة أعمالهم مطمئني البال، سواء في التجارة، أو في الزراعة، أو في أي صناعة أخرى يعمل الناس بها؛ حتى لا يحجم هذا عن تحسين ما بين يديه خوفاً من أن يؤخذ منه، أو يخشى ذاك الشروع في صناعة خوفاً من الضرائب؛ ولكن ينبغي أن يكافئ كل من

يقوم بهذه الأمور، وكل من يسعى بأي طريقة إلى تحسين حال مدينته أو ولايته.

وبالإضافة إلى ذلك، ينبغي له أن يلهي الشعب بالمهرجانات والمعارض في مواسم السنة المناسبة. ولما كانت كل مدينة تنقسم إما إلى نقابات طائفية وإما إلى قبائل فينبغي له ألا يفض النظر عن هذه الجماعات كافة ويختلط بها من وقت لآخر، ويجعل لهم من نفسه مثلاً للإنسانية والكرم العظيم، ومن دون أن ينزل أبداً ومهما كان الأمر عن مستوى جلال كرامته، وهذا ما يجب ألا يجيزه أبداً في أي أمر من الأمور.

الفصل الثاني والعشرون

في أمناء الأمراء

إن اختيار أمناء أمير ليس بأمر قليل الأهمية؛ فالأمناء إما صالحون وإما غير صالحين تبعًا لحجا الأمير. ويحصل المرء على أول انطباع عن حاكم وعقله حين يرى الرجال الذين حوله. فعندما يكونون قادرين ومخلصين يمكنه دائمًا أن يعتبر الأمير عاقلًا؛ لأنه استطاع أن يتعرف ما قدرة أمنائه، وأن يحتفظ بهم مخلصين. ولكن عندما يكونون على العكس من ذلك يستطيع المرء دائمًا أن يكون عن الأمير رأيًا غير مقبول؛ لأن أول خطأ له يكون في هذا الاختيار.

وما من إنسان عرف أنطونيو دا فنافرو Antonio da Venafro وزيرًا لباندولفو وتر وتشي أمير سينا إلا واعتبر باندولفو رجلًا جد حكيم؛ لأن أنطونيو أمينه. وللرجال ثلاثة عقول مختلفة؛ الأول، يفهم الأمور من دون معونة سواه. والثاني، يفهمها حين يبينها غيره له. والثالث، لا يفهمها بمفرده ولا بشرح سواه. إن النوع الأول أكثر الثلاثة امتيازًا، والثاني ممتاز أيضًا، ولكن الثالث عديم الفائدة. ولذا يتضح أنه إذا لم يكن باندولفو من النوع الأول، فهو على أي حال من النوع الثاني؛ لأن للأمير دائمًا أن يحكم على معرفة الخير والشر اللذين يفعلهما إنسان أو ينطق بهما، حتى لو لم يكن الأمير صاحب أصالة عقلية، بيد أنه يستطيع أن يعرف أعمال أمينه السيئة والصالحة، ويصحح الأولى،

ويشجع على الأخرى. ولما كان الأمين لا يستطيع أن يأمل في خداع الأمير؛ فهو لذلك يظل صالحًا .

ولكي يتسنى للأمير أن يعرف وزيرًا فثمة هذه الطريقة التي لا تخفق أبدًا. عندما ترى الوزير يفكر في نفسه أكثر مما يفكر فيك، ويبحث عن مصلحته الخاصة في جميع أعماله ، فلن يكون مثل هذا الرجل وزيرًا صالحًا، ولا يمكنك الاعتماد عليه؛ لأن واجب من في يده مقاليد أمور ولاية غيره ألا يفكر في نفسه أبدًا، بل عليه أن يفكر في الأمير بمفرده، وألا يعبأ بأي شيء سوى ما يخص الأمير. ومن ناحية أخرى، ينبغي للأمير لكي يصون وفاء أمينه أن يفكر فيه، ويكرمه ويثريه، ويعطف عليه، ويمنحه رتب الشرف، ويوليّه الأعمال ذات المسؤولية؛ حتى يجعله الشرف والثراء العظيمان اللذان قد منحاه لا يرغب في غيرهما، وتجعله السلطات العامة التي يتولاها يخشى التغييرات السياسية . ويستطيع الأمراء وأمناؤهم أن يعولوا بعضهم على بعض حين تظل بينهم هذه العلاقة، وعندما تكون غير ذلك فالنتيجة ضارة دائمًا لأي منهما، سواء هذا أو ذاك.

الفصل الثالث والعشرون

كيف يجب الفرار من المتملقين؟

ويجب ألا أغفل عن موضوع مهم، وأن أذكر خطأ الأمراء الذي لا يستطيعون مجانبته بغير صعوبة، إلا إذا كانوا على درجة كبيرة من الحكمة، أو لم يسيئوا الاختيار، وهذا الموضوع هو ما يتعلق بالمتملقين الذين يحفل بهم كل بلاط؛ لأن الناس يبتهجون لأموالهم الخاصة ويخدعون بها أنفسهم، حتى إنهم لا يستطيعون أن يتقوا شر هذا الطاعون إلا بصعوبة. وحين يرغبون في اتقائه يخاطرون باحترامهم، ويصبحون أزرىاء؛ لأنه لا توجد طريقة أخرى ليقى المرء نفسه شر التملق سوى أن يذر الناس يفهمون أن قولهم الحقيقة لن يؤذيه. ولكنك تفقد احترامهم لك حينما يستطيع كل إنسان أن يخبرك بها. ولذا يجب على الأمير الحكيم أن ينهج على طريقة ثالثة، وهي أن يختار لنصحه رجالاً حكماء، ويعطي لهؤلاء بمفردهم الحرية التامة لكي يذكروا له الحقيقة فيما يتصل بتلك الأمور التي يسأل عنها فقط، ولا شيء سواها. ولكن عليه أن يسألهم عن كل شيء، ويسمع لرأيهم، ثم يتداول الأمر مع نفسه على طريقته الخاصة، ويوافق هذه المجالس مجتمعة، وكلاً من هؤلاء الرجال على أفراد حتى يستطيع كل منهم أن يرى أنه كلما كان حرّاً في الرأي كان أكثر قبولاً عند الأمير. وينبغي له ألا يستمع إلى غير هؤلاء، وأن يأخذ في العمل بأناة وتفكير، وأن يكون في قراراته حازماً. وكل

من يفعل غير ذلك فإما أن التملق يفضي به إلى أن يعمل في عجلة، وإما أنه لا يقر له قرار أبدًا لتباين الآراء؛ والنتيجة أن يفقده ذلك كل اعتبار.

وسوف أضرب لذلك مثلاً حديثاً. قال القسيس لوقا Luca مندوب مكسميليان الإمبراطور الحالي عن جلالتة وهو يتحدث عنه: إنه لم يستشر أحداً قط، إلا أنه لم يفعل بتاتاً أي شيء كما يرغب. وهذا يرد إلى اتباعه منهجاً عكس ما سبق ذكره. فلما كان الإمبراطور رجلاً كتوماً، فهو لم يصرح بنياته لأحد، ولم يسمع لأي نصيحة، ولكن كان أولئك الذين حوله يعارضونها حين يأخذون في معرفتها عند التنفيذ ويكشف عنها الغطاء، فينحرف الإمبراطور في يسر عن غرضه. ومن هنا يحدث أن ما يفعله اليوم لا يفعله غداً، ولا يدرك إنسان أبداً ما يريد أن يفعله، ولا ما يقصده، ولا يركن أحد إلى قراراته.

ولذلك ينبغي للأمير أن يستشير دائماً، ولكن عندما يريد هو فقط، لا عندما يريد غيره. كما ينبغي له، على العكس من ذلك، أن يثبط تماماً عزم من يحاول أن يقدم إليه المشورة، إلا إذا طلب هو ذلك. وينبغي له أن يكون سائلاً عظيمًا، ومستمعًا متأنياً لحقيقة تلك الأمور التي قد سأل عنها، وأن يغضب بالفعل حين يجد أن إنساناً أحجم لأمر ما عن ذكر الحقيقة بكلها وكيلاها، وهو يخبره بها. إن بعض الناس مخدوع من غير شك حين يظن أن الأمير الذي يشتهر بالحكمة لا يعتبر حكيماً لطبيعته هو، ولكن ذلك يرجع إلى المستشارين حوله؛ لأن القاعدة الصادقة هي أنه لا يمكن نصيح أمير هو نفسه غير حكيم، إلا إذا اتفق أن تخلي عن نفسه تماماً بين يدي رجل يسيطر عليه في الأمور كافة، وحدث أن كان هذا رجلاً جده حكيماً. وفي هذه الحالة

فلا شك في أن يحكمه حكمًا صالحًا، ولكن هذا لا يطول أمد؛ لأن هذا الحاكم سيجرده من الولاية. ولكن إذا أخذ المشورة من عدد كبير فلن يستطيع التوفيق بين آرائهم المتباينة ما دام غير حكيم، وسوف يفكرون جميعًا في مصالحهم الخاصة، وسيعجز هو عن تقويمهم أو فهمهم. ولا يمكن أن يكون الأمر غير ذلك؛ لأن الناس سوف يغشونك دائمًا، إلا إذا أرغمتهم الضرورة على أن يصدقوك. ولهذا يجب أن تكون النتيجة هي: الواجب أن تعزى النصائح الحكيمة لأي ناصح كان إلى حكمة الأمير، لا أن ترد حكمة الأمير إلى النصائح الصالحة التي يتلقاها.

الفصل الرابع والعشرون

لماذا أضاع أمراء إيطاليا ولاياتهم؟

ولوروعيت الأمور التي سبق ذكرها مراعاة حكيمة فإنها تجعل الأمير الجديد يبدو وكأنه قديم في الحكم، كما يصبح في الحال أكثر سلامة وثباتًا في الولاية مما لو كان قد قام فيها منذ زمن بعيد. لأن الأبصار تتطلع إلى أعمال الأمير الجديد أكثر من تطلعها إلى أعمال الأمير الوراثي، وحين تعتبر هذه أعمال قدرة يكثر أنصاره، ويرتبطون به ارتباطًا أوثق مما لو كان حاكمًا قديمًا. لأن الأمور الحاضرة تجذب انتباه الناس أكثر من الأمور الماضية، وحين يجدون حالتهم الراهنة طيبة ينعمون بها ولا يبحثون عن سواها، وعلى العكس من ذلك، سوف يبذلون ما في وسعهم للدفاع عن الأمير طالما لا يظهر نقصًا في أمور أخرى. وهكذا ينال مجددًا مضاعفًا: مجد إرساء أسس عهد جديد، ومجد تحسينه بالقوانين الصالحة، والأسلحة الصالحة، والأصدقاء الصالحين، والمثل الصالحة. كما أن من يولد أميرًا ويفقد عرشه بسبب افتقاره إلى الحكمة يكون عاره عارين.

وإذا نظر المرء بعين الاعتبار إلى أولئك الحكام الذين فقدوا ولاياتهم في إيطاليا في أيامنا، مثل ملك نابولي، ودوق ميلانو وغيرهما، فسوف يجد أولًا نقصًا عامًا في أسلحتهم للأسباب التي ناقشناها بالتفصيل، ويلاحظ حينئذ أن بعضهم إما أن شعبه يعاديه، وإما إذا لم يكن الأمر كذلك، فإنهم لم يستطيعوا أن يستوثقوا من النبلاء؛ لأنه من دون هذه النقائص لا تضيع الولايات التي لها قوة

كافية تمكنها من أن تحتفظ بجيش في الميدان. إن فيليب المقدوني، لا فيليب أبو الإسكندر الأكبر، بل الذي هزمه تيتوس كونتيوس Titus Quintius، لم تكن له دولة عظيمة تقارن بعظمة روما وبلاد الإغريق التي شنت عليه هجوماً عنيفاً، ولكن، وقد كان رجل حرب، وإنساناً يعرف كيف يحظى بنصرة الشعب، وكيف يأمن جانب عليه القوم، استطاع أن يستمر في الحرب ضد أعدائه سنين طويلة. وإذا كان قد فقد سلطانه على بعض المدن في نهاية الأمر فإنه ظل قادراً على الاحتفاظ بمملكته.

ولذلك يجب على من سيطروا من أمرائنا على ممتلكاتهم سنين طويلة ألا يهتموا الحظ، ولكن الأحرى بهم أن يهتموا إهمالهم؛ لأنهم في الأوقات الهادئة لم يحسبوا قط حساباً لتقلب الأمور. (شأن نقيصة البشر عامة ألا يحسبوا حساب العواصف في الطقس المعتدل). وحين قلب الدهر لهم ظهر المجن لم يفكروا إلا في الفرار بدلاً من الدفاع عن أنفسهم، وكان أملهم أن يستدعيهم الشعب حين يستاء من غطرسة الغزاة. إن هذا الإجراء صالح عندما يعوزهم غيره، ولكن من أسوأ الأمور جداً أن نهمل الأدوات الأخرى من أجل هذا الإجراء؛ لأنه ما من أحد يرغب في السقوط اعتقاداً منه أنه قد يجد من يأخذ بيده. هذا الأمر قد يحدث وقد لا يحدث، وإذا حدث فلن يقدم إليك الطمأنينة؛ لأنك لم تساعد نفسك بنفسك، ولكن قدمت إليك المساعدة كما تقدم إلى جبان. إن أساليب الدفاع الوحيدة الصالحة، والأكيدة والدائمة، هي تلك التي تتوقف عليك أنت بمفردك، وعلى قدرتك الخاصة.

الفصل الخامس والعشرون

القدر الذي يلعبه الحظ في الأمور البشرية وكيف يمكن
التصدي له

إنني أعرف كم من الكتاب يرى، وما زال، أن الحظ والله يسيطران على حوادث هذا العالم، حتى إن البشر لا يستطيعون أن يغيروها، وأنه، على العكس من ذلك، لا علاج لها أيًا كان؛ ولذا يحكمون بأن الكد كثيرًا فيها غير مفيد، ولكن لنذر الصدفة تحكم الأمور. ولقد زادت في يومنا درجة تأييد هذا الرأي بسبب ما رأوه، وما يزال يرى كل يوم، من التغييرات الكبيرة التي وراء كل حدس إنساني. وحين أفكر فيها فإنني أميل في بعض الأحيان إلى المشاركة في هذا الرأي إلى حد ما. ومع ذلك، فلكيلا نقضي نهائيًا على إرادتنا قضاء مبرما أرى أنه قد يكون من الصواب أن الحظ حكم لنصفه أعمالنا، وأنه يتيح لنا أن نحكم النصف الآخر أو ما يقرب منه. وأشبه الحظ بنهر قوي التيار، سريع الجريان، وحين يهيج ويموج يفيض على السهول، ويقتلع الأشجار، ويهدم الأبنية، وينقل الثرى من شاطئ إلى شاطئ، ويفر أمامه كل إنسان، ويستسلم كل شيء لهيأجه، من دون أن يقوى على أن يتصدي له، ومع ذلك، ولو أن هذه طبيعته، فإن الناس ما زالوا يستطيعون أن يتخذوا الحيلة منه بالسدود والجسور حين يكون هادئًا، حتى إذا هاج وماج فإما أن يجري في قناة، وإما لا يكون اندفاعه عنيفًا جدًا وخطرًا. وهذا أيضًا شأن الحظ يظهر قوته حيث

لم تتخذ التدابير لمقاومته، وينحو بغضبه إلى حيث يدري ألا سدود ولا حواجز قد أقيمت لتعترض سبيله. وإذا نظرت إلى إيطاليا التي كانت مسرح هذه التغييرات التي قد قدمت الدافع إليها، فإنك تراها بلدًا من دون حواجز ولا جسور من أي نوع. فلو كانت تحميها تدابير صحيحة مثل ألمانيا، وإسبانيا، وفرنسا، لما تسبب هذا الفيضان في تغييراتها الكبيرة، ولربما لم تقع بناتًا.

ويجب أن يكفي هذا لكي نتصدى للحظ عمومًا، ولكن حين أقتصر على حالات خاصة فإنني أشير إلى كيف يرى المرء أميرًا من الأمراء يواتيه الحظ اليوم، وغداً يحطمه، من دون أن نشاهد أي تغيير عنده في خلقه أو غيره. أعتقد أن هذا يرد أول ما يرد إلى الأسباب التي قد ناقشناها بإطناب منذ وقت قصير. وبعبارة أخرى أقول: السبب هو أن الأمير الذي يركن إلى الحظ تمامًا يهلك عندما يتغير الحظ. وأعتقد أيضًا أن السعيد هو من تتفق حال إجراءاته مع حاجات العصر؛ وبالمثل فإن التمس هو من لا تتفق حال إجراءات أعماله معها. لأن المرء يرى الرجال في تلك الأمور التي تقودهم إلى الغرض الذي يتطلع كل منهم إليه، أي العظمة والثراء، يجرون على طرائق متباينة. هذا يصل بالحذر، وذاك يصل بالتسرع؛ واحد يصل بالعنف، والآخر يصل بالمكر؛ إنسان يصل بالصبر، وسواه يصل بعكس ذلك. وبهذه المناهج المختلفة تمام الاختلاف يمكن أن يصل كل منهم إلى هدفه. ويرى الإنسان أيضًا رجلين حذرين ينجح أحدهما في نيل ما يريد، ويفشل الآخر؛ وكذلك ينجح على حد سواء رجلان لكل منهما منهج يغاير منهج الآخر فأحدهما حذر، والآخر مندفع. والسرفي ذلك ليس سوى طبيعة العصر التي تتفق مع نهج إجراءاتهم أو لا تتفق

معها. ونتيجة ذلك، كما قلت، أن رجلين يعملان بطريقتين مختلفتين يصلان إلى النتيجة نفسها، ورجلين آخرين يعملان بطريقة واحدة يصل أحدهما إلى هدفه، ولا يبلغه الآخر. وعلى هذا الأمر تتوقف أيضًا التغيرات في الفلاح؛ لأنه إذا حدث أن كان الزمن والظروف ملائمين لمن يعمل بحذر فإنه ينجح، ولكن إذا تغير الزمن والظروف فإنه يهلك؛ لأنه لم يغير من حال إجراءاته للأمور. لم يوجد حكيم لدرجة استطاع معها أن يكيف نفسه مع هذا الأمر، إما لأنه لا يمكنه أن ينحرف عما تعد به طبيعته، وإما لأنه كان ينجح دائمًا وهو يسلك مسلكًا واحدًا، فلا يستطيع أن يقنع نفسه بأن من الصالح له أن يترك هذا الطريق. ولذا فإن الرجل الحذر حين يكون الزمن مناسبًا للعمل المبالغ لا يعرف كيف يفعل ذلك، وبالتالي يهلك. لأن المرء إذا استطاع أن يغير طبيعته مع الزمن والظروف فلن يتغير حظه أبدًا.

عمل البابا يوليوس بعجلة في كل ما قام به، وألفى الزمن والظروف ملائمين لحال إجراءاته الأمور، حتي إنه كان يحصل دائمًا على نتيجة طيبة. ولتنظر إلى الحرب الأولى التي قام بها ضد بولونيا وجان بتيفولي. لم ترق هذه الحرب للبنادقة، ولا لملك إسبانيا، وكانت فرنسا تجري معه محادثات بشأن الحملة. ومع ذلك، جردها شخصيًا نظرًا إلى استعداداته الضارية وميوله العجال. وكانت نتيجة هذه الحركة توقف إسبانيا والبنادقة وترددهم. وكان الخوف دافع البنادقة إلى ذلك، وكانت العلة بالنسبة إلى إسبانيا رغبتها في أن تستعيد جميع مملكة نابولي. ومن ناحية أخرى أشرك معه ملك فرنسا؛ لأنه حين رآه يقوم بهذه الحركة، وكان يرغب في

صداقته لكي يكسر شوكة البنادقة، رأي ذلك الملك أنه لا يستطيع أن يرفض مساعدته بقواته من دون أن تكون في ذلك إهانة سافرة له. وهكذا أنجز يوليوس الثاني بحركته العجلى ما لم يكن في استطاعة أي بابا سواه أن ينجح في القيام به بأقصى حكمة بشرية. لأنه لو كان قد انتظر حتى تتم جميع الترتيبات، ويتقرر كل شيء قبل أن يبارح روما، لما كتب له النجاح قط؛ لأنه كان من المحتمل أن يجد ملك فرنسا آلاف الأعداء، وأن يوحى إليه سواه بآلاف المخاوف. وإنني أقتصر على عمله هذا من دون أعماله الأخرى التي كانت جميعاً من هذا النوع، ونجحت كلها نجاحاً طيباً. إنه لم يجرب الفشل؛ وذلك لقصر حياته. فلو أنه تلا ذلك أوقات كان من الضروري فيها العمل بحذر، لكانت النتيجة هلاكه؛ لأنه لم يكن ليحيد قط عن هذه المناهج التي أعدته لها طبيعته.

والنتيجة، إذن، أن الحظ حين يتغير، ويثبت البشر على مناهجهم، فإنهم ينجحون طالما تتلاءم هذه الطرائق مع الظروف. ولكن عندما تتعارض مع الظروف فإنهم حينئذ لا ينجحون. ورأي بصورة مؤكدة أن الإقدام أفضل من الحذر؛ لأن الحظ امرأة لا بد من أن تظفر بها بالقوة إذا أردت أن تسيطر عليها. ويمكن لنا أن نرى أن الحظ يستسلم للباسل أكثر من أولئك الذين يعملون بأناة. ولذلك فالحظ كالمرأة يصادق دائماً الشباب؛ لأنهم أقل حذراً، وأكثر عنفاً، ويسيطرون عليه بجرأة تفوق جرأة سواهم.

الفصل السادس والعشرون

الحض على تحرير إيطاليا من البرابرة

والآن وقد نظرت بعين الاعتبار إلى الأمور التي تحدثت عنها، وتأملت في قرارة نفسي فيما إذا كان الوقت الحاضر لا يلائم ظهور أمير جديد في إيطاليا، وفيما إذا لم يكن ثمة وضع للأمور يعطي فرصة لرجل حول قلب وقدير كي يقدم نظامًا جديدًا يخلع عليه الشرف، ويعود بالخير على كتلة الشعب. ويدولي أن كثيرًا من الأمور تتفق وتتلاقى ليحظى بها حاكم جديد لكي يقوم بهذا العمل؛ ولا أعرف وقتًا أنسب له من الوقت الحاضر. وإذا كان من الضروري، كما قلت، أن يكون الإسرائيليون في مصر عبيدًا لكي تظهر قدرة موسى، وأن يبطش الميديون بالفرس لكي يعطي ذلك البطش مجالًا لعظمة قورش وبسالته، وأن يتفرق شمل الأثينيين لكي يظهر علو كعب تيسوس، فكذلك الحال الآن كان لابد من أن تنهار إيطاليا إلى حالتها الراهنة لتعرف قوة العبقريّة الإيطالية، وأن تكون أحط من العبريين عبودية، وأن يكون البطش بها أشد من البطش بالفرس، وأن يتفرق شملها أكثر من فرقة الأثينيين، وأن تصبح بلا رئيس، وبلا نظام، مقهورة منتهبة، ممزقة كل ممزق، ومغلوبة على أمرها، وأن تكون قد عانت كل صنوف الدمار.

ومع أنه قد لاحت قبل الآن بارقة أمل في أن فردًا معينًا قد يبعثه الله لخلاصها، إلا أننا رأينا الحظ يجانبه وهو في ذروة مهمته، حتى

إن إيطاليا الآن، وقد فارقتها الحياة تمامًا، تنتظر من قد يأسو جراحها، ويضع حدًا لاغتصاب لمبارديا، والجشع والاستلاب في مملكة نابولي وتوسكانيا، ويرى إيطاليا من تلك الجروح التي طال تقيحها. ولنشاهد كيف تضرع إيطاليا إلى الله أن يرسل إليها من يخلصها من قسوة البرابرة ومهانتهم. ولنشاهد استعدادها ورغبتها في الانضواء تحت اللواء لو رفعه فحسب رفعاً أي إنسان. ولا أمل لإيطاليا يمكنها أن ترجوه الآن إلا في أن يقود بيتك الرفيع هذا التحرير، فهو عال لنفوذه وحظه، ويحبوه الله والكنيسة التي يستمد الآن منها السلطان. ولن يكون هذا الأمر جد عسير، لو تذكرت أعمال من ذكرت من الرجال وحياتهم. ومع أن أولئك الرجال نادرون وأعاجيب، إلا أنهم بشر على أي حال، وكانت فرصة كل منهم دون الفرصة الحاضرة؛ لأن عملهم لم يكن أعدل من هذا العمل، أو أسهل منه، ولم يكن الله في عونهم كما هو في عونك الآن. هنا قضية عادلة؛ و«الحرب عادلة حينما تكون ضرورية، والأسلحة مقدسة عندما لا يعود أمل إلا في اللجوء إليها». هنا أعظم صدق للعزيمة، وإذا ما صدق العزم فقد وضح السبيل، لو أنك فحسب اقتديت بأولئك الذين وضعتهم أمامك أسوة. وفضلاً عن ذلك، فقد شوهدت في هذا المقام معجزات فذة لقد انشق البحر، وكانت الغمامة دليلاً، وتفجر الماء من الصخر، ونزل المن من السماء. ولقد تضافرت جميع الأمور لعظمتك، وواجبك أن تقوم بما بقي. إن الله لا يريد أن يفعل لنا كل شيء حتى لا يجردنا من الإرادة الحرة، ويحرمانا من نصيبنا من المجد.

وليس بعجيب إذا لم يكن أحد ممن ذكرت من الإيطاليين قد أتى بما نأمل أن يفعل بيتك الرفيع. وإذا كانت القدرة العسكرية قد بدت دائماً كما لو كان قد قضي عليها تماماً في ثورات كبيرة جداً في

إيطاليا، وفي كثير من العمليات الحربية، فإن علة ذلك أن المناهج القديمة لم تكن صالحة، ولم يقم من عرف كيف يكشف مناهج جديدة. ولا شيء يشرف من يظهر من الرجال شرفاً كبيراً أكثر مما يأتي به من القوانين والسنن الجديدة، فهذه أمور تجعله موضع إكبار وإعجاب؛ وفي إيطاليا مجال كبير لإدخال كل نوع لتنظيم جديد. وهنا في الأعضاء قدرة عظيمة بينما تفتقر إليها الرءوس. ننظر كيف تفوقت فئة من الإيطاليين قوة ومهارة وذكاء في النزال الفردي والمعارك الاجتماعية، ولكنهم أظهروا الضعف في الجيوش. إن الأمر يعزى تمامًا إلى ضعف القواد؛ لأن أولئك الذين يعملون لا يطاعون، وكل امرئ يظن بنفسه المعرفة، ولم يظهر حتى الآن من سما عاليًا لقدرته وحسن طالعته معًا لدرجة استطاع معها أن يجعل سواه يذعن له. ومن هنا حدث أن كان الفشل من نصيب الجيوش الإيطالية دائمًا لزم من طويل جدًا، وفي الحروب كافة التي شنت في أثناء العشرين سنة الأخيرة. والشاهد الأول على ذلك تارو Taro، وألساندرية Alessandria، وكابوا Capua، وجنوا Genoa، وفايلا Vaila، وبولونيا Bologna، ومستري Mestri.

ولذلك، فإذا أراد بيتك الرفيع أن يقتفي آثار أولئك العظماء الذين خلصوا أوطانهم، فمن اللازم لك، أولاً وقبل كل شيء، أن تعد نفسك بالأساس الصحيح لكل عمل، ألا وهو قواتك الوطنية؛ لأنك لن تستطيع أن يكون لك جنود أخلص منها، ولا أفضل. وإذا كان كل واحد منها صالحًا، فإنها تكون عينها أحسن حالًا وهي متحدة، وحين ترى نفسها تحت إمرة أميرها، هو يكرمها، وهي تفوز بحظوته. ولذلك فمن الضروري لك أن تعد مثل هذه القوات حتى تستطيع أن تدافع

عن الوطن من الأجانب بالقدرة الإيطالية. ومع أن المشاة السويسرية والإسبانية تعتبران شديديتي البأس، إلا أن لكل منهما نقائصها، حتى إنه يتسنى لنا بتنظيم عسكري ثالث التصدي لهما، فضلاً عن أن نكون على يقين من الغلبة عليهما؛ لأن الإسبانين لا يستطيعون أن يصمدوا لهجوم الفرسان، والسويسريين لا بد من أن يخافوا ملاقات مشاة تلقاهم بعزم مثل عزمهم. ولقد كانت نتيجة ذلك، كما سوف يشاهد بالتجربة، أن الإسبانين لا يستطيعون أن يصمدوا لإغارة الفرسان الفرنسيين، وأن تقهر المشاة الإسبانية السويسريين قهراً. ومع أننا لم نر بعد مثالا للتنظيم الأخير، إلا أن موقعة راثنا كانت مثالا له؛ حيث هجمت مشاة الإسبانين على الكتائب الألمانية المنظمة على نفس نظام السويسريين. لقد تمكن الإسبانون برشاقتهم، وبمساعدة تروسهم، من أن يخترقوا صفوفها من بين حرابها ومن تحتها، ومن أن يتخذوا لهم موقعا يهجمون منه عليها هجوماً سليماً، ومن دون أن يتسنى للألمان أن يدافعوا عن أنفسهم؛ ولو لم يغر عليهم الفرسان لأمكن إفناؤهم على بكرة أبيهم. ولذلك إذا عرفنا نقائص كل من هذين النوعين من المشاة فإنه يمكننا أن نشكل نوعاً ثالثاً يمكنه أن يقاوم الفرسان، ويكون في غنى عن الخوف من المشاة. وتنفيذ ذلك يكون بانتقاء الأسلحة، واختيار تنظيم جديد. وهذه هي الأمور التي تعطي الصيت للأمير الجديد، وتنبئه العظمة، حين يدخل هذه الأمور لأول مرة.

وعلى ذلك يجب ألا تتيح لهذه الفرصة أن تمضي؛ حتى يتسنى لإيطاليا أن تجد في النهاية محررها. وإنني لا أستطيع أن أعبر عن الحب الذي سوف يستقبل به هذا المحرر في تلك

المقاطعات كافة التي قد ذاقت العناء تحت نير الغزو الأجنبي، وعن النفوس المتعطشة للثأر، وعن الولاء المكين، وعن العقيدة الثابتة، وعن دموع الشكر والعرفان. أي باب يوصد في وجه هذا المحرر؟ وأي إنسان يرفض أن يدين له بالطاعة؟ وأي حسد يمكن أن يعترض سبيله؟ وأي إيطالي لا يقبل أن يدين له بالولاء؟ إن رائحة السيطرة الأجنبية تلسع كل أنف. فهل لبيتك الرفيع، إذن، أن يؤدي هذا الواجب، وبتلك الشجاعة والآمال التي توحى بها قضية عادلة؛ حتى ينهض وطن الآباء والأجداد تحت رايتها، ويصدق في رعابتها قول بترارك Petrarch :

إن القدرة تنازل الحماسة

ولا يطول بينهما النزال، وتقهرها؛

لأن القدرة الرومانية القديمة التي تحرك قلوب أبناء إيطاليا

ما زالت تدب فيها الحياة ولم تمت بعد.

الملاحق

تقديم موسوليني للطبعة الإيطالية عام ١٩٢٤

حدث ذات يوم أن أخبرتني إمولا Imola من فرق القمصان السوداء أنني سأهدي سيفاً نقشت عليه كلمة ماكيافللي : «لأنا نحافظ على الدول بالكلام». ولقد وضع ذلك حداً لترددي، وعين مباشرة اختيار موضوع الرسالة الذي أقدمه اليوم لتصويتكم عليه. وقد أستطيع أن أسميه : «تعليق عام ١٩٣٤ على «كتاب الأمير» لماكيافللي وهو الكتاب الذي أريد أن أطلق عليه: «ظل رجل الحكم» وفضلاً عن ذلك، يجب أن أضيف للأمانة العقلية، أن مراجع رسالتي قليلة، كما سنرى ذلك فيما بعد. لقد قرأت «كتاب الأمير» وبقية مؤلفات «الأمين العظيم» قراءة واعية، ولكن الوقت والإرادة أعوزاني لكي أقرأ جميع ما كتب عن ماكيافللي في إيطاليا وفي العالم. وأردت أن أضع بيني وبينه أقل عدد من الوسطاء، القدامى أو المحدثين، الإيطاليين والأجانب حتى لا أفسد عملية الاتصال المباشر بين مذهبه وحياتي التي عشتها، بين ما لاحظ وما لاحظت عن البشر والأشياء، بين ممارسته للحكم وممارستي له. إذن، ما أشرف بقراءته عليكم ليس باستطراد مدرسي فاتر حافل باقتباسات من الآخرين. إن هذا بالأحرى كما أعقده، مسرحية، لو أننا استطعنا النظر بعين الاعتبار إلى محاولة إقامة جسر روحي فوق هوة الأجيال بروح مسرحي معين.

ولن أقول جديدًا.

المشكلة هي: ماذا يبقى حيًا في «كتاب الأمير» بعد أربعة قرون من الزمن؟ هل يمكن أن تكون لنصائح ماكيافللي أي فائدة لرجال الحكم المحدثين؟ هل قيمة المذهب السياسي «لكتاب الأمير» وقف على العصر الذي ألف فيه؛ وعليه فهي قيمة محدودة بالضرورة، وباطلة إلى حد ما؟ أو أليست شاملة وواقعية إلى حد ما وخاصة فعالة؟ إن رسالتي تجيب عن هذه الأسئلة. وأؤكد أنه مذهب ماكيافللي حتى اليوم بعد أربعة قرون؛ والسبب أنه إذا كانت المظاهر الخارجية لحياتنا قد تغيرت تغيرًا كبيرًا، فإن التغيرات في روح الأفراد والشعوب لم تتجَلْ عميقة جدًا.

وإذا كانت السياسة هي فن حكم البشر، أو بعبارة أخرى، تربية أهوائهم وأنانياتهم ومصالحهم بالنظر إلى غايات نظام عام يكاد أن يخرج دائما عن نطاق الحياة الفردية؛ لأنها غايات تمتد إلى المستقبل. إذا كانت تلك هي السياسة، فلا ريب في أن الإنسان هو العنصر الجوهرى لهذا الفن، ومن هنا يجب البدء. ما البشر في المذهب السياسي لماكيافللي؟ ما فكرته عن البشر؟ هل يتفائل أم يتشائم؟ وحين نقول: «بشرًا»، هل يجب علينا أن نفسر اللفظ بمعناه الضيق؟ وبعبارة أخرى نفسره بالإيطاليين الذين عرفهم ماكيافللي وحكم عليهم بوصفهم معاصرين له، أو نفسره بمعنى البشر فيما وراء الزمان والمكان، وحتى نستخدم عبارة مقدسة نقول: بمعنى يدخل «تحت مظهر الخلود». وقبل الشروع في فحص أكثر تحليلًا لمذهب السياسة الماكيافلية كما يظهر لنا مركزًا في «كتاب الأمير»

يبدو لي أن من الواجب أن نكون بدقة: أي فكرة كانت عند ماكيافللي عن البشر عامة، وعن الإيطاليين خاصة؟

أجل، إن النتيجة الواضحة، وحتى قراءة سطحية «لكتاب الأمير»، هي تشاؤم ماكيافللي العنيف فيما يخص الطبيعة البشرية. إنه يحتقر البشر، شأن هؤلاء الذين أتاحت لهم الفرصة لمعاملة أندادهم معاملة رحية ومتصلة، ويجب أن يقدمهم إلينا في مظاهرهم السلبية كأشد ما تكون السلبية، والدينئة كأخط ما تكون الدناءة.

البشر، عند ماكيافللي، خبيثاء، يتمسكون بالمصالح المادية أكثر من تمسكهم بحياتهم الخاصة، وهم على استعداد لتغيير أهوائهم وعواطفهم. ويعبر ماكيافللي عن فكرته في الفصل السابع عشر من «كتاب الأمير» هكذا: «لأنه يمكن القول عن البشر عموماً: إنهم يجحدون المعروف» ويهذرون في الكلام، ويظهرون غير ما يبطنون، ويقلقون على تحاشي الخطر، ويطمعون في الكسب، وطالما تفيدهم فهم أعوانك تماماً»، «وفقدونك بدمهم ومتاعهم وحياتهم وولدهم حين تكون الضرورة إليهم» «بعيدة. ولكن حين تقترب يغدرون بك... ويهلك الأمير الذي لم يعول إلا على وعدهم دون أن يتهياً بالعدد الأخرى... إن البشر» يترددون في الإساءة إلى من يحبون أقل من تردددهم في الإساءة إلى من يهابون؛ لأن إلزام الحب الذي يشده يقطع في كل فرصة من فرص مصلحتهم؛ لأن البشر أنانيون ولكن الفزع من العقاب الذي لا يخفق أبداً يحفظ الخوف ويصونه. وفيما يخص الأنانية أعثر بين «الأوراق المتباينة على ما يلي:

«إن البشر يعانون من ملكية نزعت منهم عناء أكثر من موت أب أو أخ؛ لأن الموت ينسى أحياناً، أما الثروة فلا تنسى أبداً*» «وسبب ذلك بسيط: كل يدري أن تغيير دولة لا يمكن أن يعيد أباً،» ولكن قد يعيد امتلاك ملكية. وأعثر في الفصل الثالث من «المقالات...» على ما يلي: وكما يثبت ذلك جميع هؤلاء الذين يفكرون في الحياة المدنية. ولما كان التاريخ حافلاً بأمثلة لذلك، فمن يفكرون في الحياة المدنية؟ ولما كان التاريخ حافلاً بأمثلة لذلك، فمن الضروري لمن يعد جمهورية، ويقوم فيها نظاماً، أن يفترض أن جميع البشر خبيثاء، وهم دائماً على أهبة لاستخدام خبث نفوسهم حين تواتيهم فرصة خالصة لذلك. إن البشر لا يفعلون أي خير أبداً إلا بالضرورة؛ ولكن هناك حيث تتوفر الحرية، وحينما يمكن أن تكون لدينا فوضى، يمتلئ كل شيء في الحال بالاضطراب وعدم النظام».

ومن الممكن أن تستمر الاقتباسات، ولكن هذا غير ضروري. إن الشذرات التي اقتبسناها تكفي للبرهنة على أن الحكم السليبي على البشر، في ذهن ماكيافللي، ليس عرضياً، ولكنه حكم جوهري. وجلي أيضاً أن ماكيافللي حين يحكم على البشر كما حكم عليهم، لم يفكر فحسب في أبناء عصره من أهل فلورنسا، وأهل توسكانيا، والإيطاليين الذين عاشوا في أواخر القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر، ولكن في البشر كافة دون حصر زمني ومكاني. أما الزمن، فقد انقضت منه حقبة؛ ولكن لو أجز لي أن أحكم

* وهذه الفكرة نفسها ترد بين أفكار الفصل السابع عشر نفسه، وكذلك في ختام الفصل الثالث والعشرين من «كتاب الأمير». (المترجم)

على أمثالي وأبناء عصري، فقد لا أستطيع بأي صورة أن أضعف من حكم ماكيافللي، وقد يكون من واجبي أن أزيد من أهميته. إن ماكيافللي نفسه لا ينخدع، وهو لا يخدع الحاكم. إن التعارض في فكر ماكيافللي بين الحاكم والشعب، بين الدولة والفرد* تعارض محتوم، وهذا ما سميناه النفعية والبراجماتية، والكلية الماكيافللية تنبجس بصورة منطقية من هذا الموقف المبدئي. يجب أن نفهم من كلمة «أمير» الدولة؛ وفي فكر ماكيافللي الأمير هو الدولة. تمثل الدولة تنظيمًا وتحديداً بينما الأفراد تدفعهم أنانية نفوسهم فينزعون إلى الخمود الاجتماعي، والفرد ينزع إلى الهرب باستمرار، ويميل إلى عدم إطاعة القوانين، وعدم دفع الضرائب، وعدم القيام بالحرب. وقليل هم هؤلاء الأبطال والقديسون الذين ضحوا بمصلحتهم على مذبح الدولة**، وغير هؤلاء جميعاً في حالة ثورة كامنة ضد الدولة. إن ثورات القرنين السابع عشر والثامن عشر قد حاولت أن تحلل هذا الصراع الذي يكون عند قاعدة كل تنظيم اجتماعي لدولة؛ وذلك بأن جعلت السلطة تظهر وكأنها صادرة عن إرادة الشعب الحرة. وهذه خرافة، فضلاً عن أنها وهم. فأولاً، لم يكن تعريف الشعب قط. وهذا، ككيان شيء سياسي؛ كيان مجرد تجريداً بحثاً. إننا لا نعرف معرفة دقيقة لا أين يبدأ، ولا أين ينتهي. إن صفة السيادة حين تطبق على

* يلاحظ من ناحية قول موسوليني أيضاً في خطاب له عام ١٩٣٤: «الشعب هو الدولة، والدولة هي الشعب». ومن ناحية أخرى نلاحظ أن ماكيافللي يجعل التعارض بين الدولة والفرد تعارضاً محتوماً بالفعل، بينما يجعل التعارض بين الدولة والشعب معدوماً على الإطلاق، (المترجم).

* لقد مثل «الأنصار» مع الرسول هذا الدور في الدعوة الإسلامية؛ ولذا قال لهم: «إنكم لتكثرون عند الفزع (أي الحرب)، وتقلون عند الطعم». (المترجم).

الشعب تكون سخرية مؤلمة. الشعب يرسل على أكثر تقدير ممثليه، ولكنه لا يستطيع في الحقيقة أن يمارس أي سيادة. إن النظم التمثيلية تخص الآلية أكثر من الأخلاق، وفي البلاد نفسها التي تستخدم فيها هذه الآليات أعظم استخدام منذ قرن وقرون، تأتي ساعات رسمية لا يطلب فيها من الشعب شيء أكثر من ذلك؛ لأننا نحس بأن الجواب قد يكون مهلكًا، وتنزع من الشعب تيجان السيادة المصنوعة من الورق وهي تيجان صالحة في الأوقات العادية، ونأمره بأن يقبل إما ثورة، وإما سلمًا، وإما السير نحو حرب مجهولة، ولا إجراء آخر؛ فليس سوى الإقرار والطاعة بالنسبة إلى الشعب تسحب منه في اللحظات التي قد يستطيع فيها أن يحس بالحاجة إليها، وتترك له فحسب عندما تكون غير ضارة، أو ممدوحة كذلك، وبعبارة أخرى، في لحظات الإدارة العادية. هل تتصورون حربًا أعلنت بالرجوع إلى الشعب؟ إن الاستفتاء يسير سيرًا حسنًا جدًا عندما يكون بصدد اختيار أنسب محل لوضع نافورة القرية، ولكن حينما توضع المصالح العليا لشعب في الميزان تتقي جيدًا الحكومات فوق الديمقراطية أنفسها من أن ترجعها إلى حكم الشعب نفسه. إذن، هناك على الدوام الصراع بين القوة المنظمة للدولة وبين شرائح الأفراد والجماعات، ويوجد حتى في النظم التي صنعتها لنا الإنسيكلوبيديا Encyclopedie التي أخطأت عبر روسو بأن أسرفت في التفاؤل إسرافًا لا يقاس. لم توجد قط نظم حازت الموافقة المطلقة، ويحتمل ألا توجد أبدًا. ولقد كتب ماكياقللي في «كتاب الأمير» قبل أن تصبح مقالتي هذه مشهورة بمدة كبيرة: «وعلى ذلك حدث أن انتصر جميع الأنبياء غير العزل، وهلك

الأنبياء العزل. لأن طبيعة البشر متقلبة، ومن السهل أن نستميلهم إلى أمر من الأمور، ولكن من العسير أن نُبقي على إيمانهم هذا. ومن هنا لزم ترتيب الأمور بحيث يمكننا استخدام القوة لنكرهم على الإيمان ما ارتدوا عنه. لو كان موسى وقورش ورومولوس عزلاً لما استطاعوا أن يجعلوا غيرهم يراعون دساتيرهم أمداً طويلاً».

لمحات من حياة نيقولو ماكيافلي

١٤٦٩ (مايو): مولد نيكولا دي برناردو ماكيافلي لأب اسمه برناردو، وأم اسمها بارتولوميا دي نيلي.

١٤٧٥: سكستس الرابع (ديلا روفير) يتولى منصب البابا.

١٤٨١: ينتظم ماكيافلي، مع شقيقه توتو، في تلقي الدروس بمدرسة باولو دارونسيلوني.

١٤٨٤: إنوسنت الثالث (سيبو) يصبح البابا.

أواخر سنوات ثمانينيات القرن الخامس عشر. يبدأ ماكيافلي في الاستماع إلى محاضرات مارشيللو فيرجيلو أدرياني.

١٤٩١: سافونارولا يبدأ في تحقيق شهرته واعظاً.

١٤٩٢ (إبريل): وفاة لورنتسو دي مديتشي. ويصبح بيرو كيرا للعائلة، ويصبح الإسكندر السادس (بورجيا) البابا.

١٤٩٤ (نوفمبر): يتم إقصاء بيرو وآل مديتشي عن فلورنسا، وتدخل القوات الفرنسية إلى المدينة.

١٤٩٨ (مايو): يتم إعدام سافونارولا بتهمة الهرطقة.

(يونيو): المجلس الأعلى يصدق على تعيين ماكيافلي في منصب المستشار الثاني للجمهورية.

(يوليو): يتم اختيار ماكياقللي أميناً للمجلس العشري للحرب.
 (نوفمبر): يوفد ماكياقللي في أول بعثة دبلوماسية له إلى
 بيومينو نيابة عن المجلس العشري للحرب.
 ١٤٩٩؛ تقرير عن حرب بيزا.

بعثة إلى كاترينا سفورتسا- رياريو حاكم إمولا وفورلي.
 ١٥٠٠ (يوليو): بعثة مدتها ستة أشهر لملك فرنسا لويس الثاني عشر.
 ١٥٠١: ماكياقللي يتزوج ماريتيا كورسيني (وسينجبون ستة أولاد).
 ١٥٠٢: يتم انتخاب بيرو سورديني لمنصب جونفالونيري
 gonfaloniere [قاضي القضاة] مدى الحياة.
 (أكتوبر): ماكياقللي يوفد في بعثة إلى بلاط قيصر بورجيا
 (دوق فالنتينو) في إمولا.

(ديسمبر): ماكياقللي يرافق قيصر إلى تشرينا وسنجاليا.
 ١٥٠٣: وصف أسلوب قتل دوق فالنتينو لكل من فيتيلوتسو
 فيتلي، وأوليفروتو دا فيرمو، ولورد باجولو، ودوق جرافينا
 أورسيني؛ ملاحظات بشأن زيادة الموارد المالية؛ حول كيفية
 التعامل مع متمرد منطقة فال دي تشيانا. فيما يتعلق بخطة
 ماكياقللي لتعزيز السيطرة الفلورنسية على بيزا (بخصوص
 التمرد على فلورنسا في الفترة من ١٥٠٢ إلى ١٥٠٩)، تم
 سؤال ليوناردو دا فنشي عن خطة لتحويل مجرى نهر أرنو
 ليمر قريباً من بيزا ثم يتجه إلى مصبه في البحر عند ليفورنو.

(إبريل): تم إيفاد ماكيافللي في مهمة إلى باندولفو بروتشي حاكم سينا.

(سبتمبر): انتخاب البابا بيوس الثالث (بيكولميني).

(أكتوبر): تم إيفاد ماكيافللي في مهمة إلى البلاط البابوي في روما.

(نوفمبر): انتخاب البابا يوليوس الثاني (ديلا روفيري).

١٥٠٤ عشرة الكتب الأولى.

(يناير): البعثة الثانية لماكيافللي إلى بلاط الملك لويس الثاني عشر.

(يوليو): البعثة الثانية لماكيافللي إلى باندولفو بروتشي.

١٥٠٥: (ديسمبر): ماكيافللي يصبح مقررًا للجنة الحرب الجديدة (تساعية قوات الميليشيا).

١٥٠٦: تقرير عن الإعداد العسكري لفلورنسا.

(يناير): ماكيافللي يضم جنودًا إلى الميليشيا في موجيلو شمالي فلورنسا.

(أغسطس - أكتوبر): البعثة الثانية لماكيافللي للبلاط البابوي ترافق البابا يوليوس من فيتربو إلى أورفيتو وبيروجيا وأورينو وتشيزينا وإمولا.

١٥٠٧ (ديسمبر): ماكيافللي يوفد في بعثة إلى بلاط الإمبراطور ماكسيميليان.

١٥٠٨: تقرير حول ألمانيا.

١٥٠٩: تقرير بشأن ألمانيا والإمبراطور: العشرة الثانية.

١٥١٠: (يونيو - سبتمبر): البعثة الثالثة لماكيافللي إلى بلاط الملك لويس الثاني عشر.

١٥١١ (سبتمبر): البعثة الرابعة لماكيافللي إلى بلاط الملك لويس الثاني عشر.

١٥١٢: بعد أن غزت القوات الإسبانية الأراضي الفلورنسية - وسلبت براتو - فلورنسا تستسلم، ويتم عزل سودريني ونفيه حيث يعود آل مديتشي إلى الحكم.

[بعد إبريل ١٥١٢] تقرير عن الشئون الألمانية.

(نوفمبر)؛ يتم إقصاء ماكيافللي من المستشارية وتحدد إقامته لمدة عام داخل الأرض الفلورنسية.

١٥١٣ (فبراير): يحاكم ماكيافللي بتهمة التآمر ويتم تعذيبه وسجنه.

(مارس - إبريل): يعتزل ماكيافللي الحياة العامة بعد إطلاق سراحه، ويذهب إلى مزرعته في سانت أندريا بيركوسينا التي تقع على بعد سبعة أميال جنوب فلورنسا.

(مارس): انتخاب البابا ليو العاشر (جيوفاني دي مديتشي).

(يوليو): ماكيافللي يضع مسودة كتاب «الأمير».

[١٥١٤ أو بعد ذلك] حديث أو تعليق بشأن لغتنا.

١٥١٥: ينضم ماكيافللي إلى مجموعة المناقشة - المعنية بالأمور

السياسية والأدب - التي تعقد لقاءاتها في أورتي أوريشلاري في فلورنسا، ويبدأ في كتابة تعليقاته على أول عشرة من كتب ليفي، ويهدي تعليقه على عشرة الكتب الأولى من كتاب ليفي تاريخ روما إلى زانوبي بوندلونتي وكوسيمو روتشلاي حفيد برناردو روتشلاي مخطط حدائق أوريشلاري.

[١٥١٥ - ١٥٢٠] رواية ماكيافللي القصيرة Belfagor.

حوالي عام ١٥١٦ نسخ من مسودة كتاب الأمير تبدأ في الانتشار خارج فلورنسا.

[١٥١٧ أو ١٥١٨] قصيدة L'Asino d'oro [الحمار الذهبي].

١٥١٨: ماكيافللي يكتب مسرحيته الساخرة Mandragola [جذر الماندراجولا]، وهو الآن ينتهي من كتابة التعليقات.

١٥٢٠: ماكيافللي يؤلف كتابه عن تنظيم الجيوش Dell'Arte della Guerra [فن الحرب] وكتابة La Vita di Castruccio Castracani de Lucca [سيرة كاستروتشيو كاستراكاني دا لوقا]، وكذلك يكتب نبذة عن نظام لوقا في الحكم. وقد كلفه الكاردينال جوليو دي مديشي بكتابة تاريخ فلورنسا.

١٥١٩ أو ١٥٢٠ تعليق على الأوضاع الفلورنسية بعد وفاة لورنتسو.

١٥٢١ نشر كتاب فن الحرب.

١٥٢٢: استشارة لرافاييلو جيرولامي.

انتخاب الكاردينال أدريان فلورنزش Adrian Florensz لمنصب البابا باسم أدريان السادس.

١٥٢٣ : انتخاب الكاردينال جوليو دي مديتشي لمنصب البابا واتخاذ
لقب كليمنت السابع.

[٢٤-١٥٢٥] مسرحية كليتسيا.

١٥٢٥ : ماكيافلي يزور روما ليقدم كتابه Istorie Fiorentine [تاريخ
فلورنسا] كاملاً إلى البابا كليمنت. ويتم عرض مسرحية
ماكيافلي Mandragola التي تحظى بقبول واسع في البندقية
التي يزورها لاحقاً في مهمة لتسوية نزاع يتعلق بطائفة [نقابة]
تجارة الصوف في فلورنسا.

١٥٢٦ : تقرير بشأن تحصين فلورنسا.

ماكيافلي ينقح مسرحيته Mandragola.

١٥٢٧ (مايو): يتم نهب مدينة روما بصورة وحشية من جانب الجيش
الإمبريالي المكوّن بصورة أساسية من الألمان والإسبانيين
تحت قيادة دوق البوربون. ويتم طرد آل مديتشي من فلورنسا
التي تبدأ في تطبيق دستور جديد.

(٢١ يونيو): وفاة ماكيافلي ودفنه في كنيسة سانتا كروز.

١٥٣٢/٣١ : ظهور كتاب التعليقات وكتاب الأمير وتاريخ فلورنسا
بعد وفاة ماكيافلي.

فهرس الأعلام

Achilles

أخيل، بطل الإلياذة، تعلم على يد كل من فوينيكس والقنطور كيرون.

Acuto Giovanni

أكوتو (جيوفاني). الاسم الإيطالي لجون هوكود، وهو رجل من إسكس خدم في فرنسا ورقاه إدوارد الثالث لرتبة فارس. وفي عام ١٣٦٠، توجه بصحبة قوة صغيرة من قواته إلى إيطاليا حيث اكتسب شهرة واسعة بوصفه قائد للمرتزقة. يُذكر أن القول الإيطالي السائر (الإنجليزي المتأطلن هو الشيطان عينه) كان يشير بدايةً إلى اعتداءات وحشية يرتكبها مرتزقة إنجليز من نوعه.

Agathocles

أجاتوكليس. أعلن حاكمًا على سيراقوزة عام ٣١٧ ق.م، امتد حكمه ليشمل صقلية كلها فيما عدا الأرض التي كان يحتلها القرطاجنيون. وفي عام ٣١٠ ق.م هزمه الجيش القرطاجني بقيادة هملقار الذي كان حينذاك يحاصر سيراقوزة نفسها. استطاع أن ينقل الحرب إلى إفريقيا بنجاح، ولكنه أُجبر على أن يعود أدراجه إلى وطنه

حين ثار عليه عديد من المدن في سيرا قوزة، واضطر إلى عقد صلح مع قرطاجنة. ومات أجاتوكليس عام ٢٨٩ ق.م. ورواية ماكيافلي مستقاة من المؤرخ الروماني جوستين.

Alexander

الإسكندر. الإسكندر الأكبر، ملك مقدونيا (٣٥٦-٣٢٣ ق.م). اعتلى العرش عام ٣٣٦ ق.م، وأخضع بلاد اليونان واجتاز هيلسبونت [الدردنيل] ليحارب بلاد الفرس عام ٣٣٤ ق.م. وهزم داريوس [دارا] عام ٣٣٣ ق.م. نصب نفسه حاكمًا على آسيا وغزا الهند عام ٣٢٧ ق.م.

Alexander

الإسكندر. م. أوريليوس الإسكندر سفيروس، الإمبراطور الروماني في الفترة ٢٢-٢٣٥ م. ابن عم الإمبراطور هليوجابالوس الأكبر الذي تبناه عام ٢٢١. وقد قتله القوات المتمردة ربما بتحريض من جانب ماكسيمينوس.

Alexander vi

الإسكندر السادس. تم انتخاب كاردينال رودريجو بورجيا في منصب البابا عام ١٤٩٢. وتوفي عام ١٥٠٣. اشتهر بسمعة سيئة نظرًا إلى فساد حياته الشخصية، ولحبه العارم لأطفاله غير الشرعيين. لكنه كان كاهنًا بارعًا، وأول بابا يتم وقفه بعد الغزو الفرنسي لإيطاليا والحرب الفرنسية الإسبانية.

Antiochus

أنتيوكوس. أنتيوكوس الأكبر، ملك سوريا في الفترة ٢٢٣-١٨٧ ق.م. شن أعمالاً عدائية متواصلة ضد الرومان.

Ascanio

أسكانيو. انظر: سفورتسا (الكاردينال).

The Baglioni

الباليوني. حكام المدينة البابوية في بيروجيا حيث قامت دولتهم في القرن الخامس عشر.

Bentivogli, Giovanni

بنتيفولي (جيوفاني) (١٤٣٨-١٥٠٨). ابن أنيبالي بنتيفولي، المواطن الأول لبولونيا الذي قتلته جماعة منافسة عام ١٤٤٥. نصب نفسه حاكمًا على بولونيا عام ١٤٦٢. وبعد سقوط ميلانو عام ١٤٩٩، أوفد ابنه أنيبالي إلى لويس الثاني عشر ليعبر عن خضوعه له. وطرده يوليوس الثاني من المدينة عام ١٥٠٦ زاعمًا حقه في مدن رومانا. ومات في المنفى. وعاد أبنائه إلى بولونيا بمساعدة الفرنسيين عام ١٥١١، لكن بولونيا وقعت من جديد في يد يوليوس عام ١٥١٢. والأحداث التي يشير إليها مافيا في الفصل التاسع عشر تقع في عام ١٤٤٥.

Bergamo, Bartolommeo Da

برجامو (بارتولوميو دا). هو بارتولوميو كولونيوني دا بيرجامو أحد المرتزقة الذين انضموا إلى قوات البندقية بدءاً من عام ١٤٢٤. قاد قوات البندقية بعد طرد كارمانولا. توفي عام ١٤٧٥.

Bernabó Messer

برنابو ميسير. هو برنابو فيسكونتي الذي حكم بلاد ميلانو (١٣٨٥-٥٤) بمشاركة أخويه. وفي عام ١٣٨٥، سجنه ابن أخيه يان جالياتسو ثم قتله.

Cesare Borgia

بورجيا (قبصر بورجيا). ولد في روما العاصمة عام ١٤٧٦، وهو ابن الكاردينال رودريجو بورجيا ومديرة منزله فانوتسا كاتانيي. ولم يكن كاهناً، ولكنه نصب كاردينالاً بعد أن صار شماساً عام ١٤٩٣. وفي عام ١٤٩٨، تبخلى عن نذوره قبل أن يسافر إلى فرنسا للتفاوض على معاهدة مع كل من الإسكندر السادس ولويس الثاني عشر، ويحكم للثاني بحقه في الزواج من أرملة شارل الثامن والتحالف مع البابا لغزو نابولي. وأصبح دوق فالنس وتزوج شارلوت دالبريت بنت عم الملك. وقد وعده لويس بدعمه في غزوه المرتقب لرومانا التي كانت تحت سلطة البابا من الناحية الاسمية وسيطر عليها حكام مستقلون. وما إن بدأ ربيع عام ١٥٠١، حتى كان قيصر قد أخضع مدن فانو وبيزارو وريميني وتشيزينا وفورلي وفاننزا وإمولا، وأقامه

البابا دوقًا على رومانا. وفي عام ١٥٠٢، خطط البابا لغزو كاميرينو وأورينون. وبعد حملة ناجحة، واجه قيصر تمرّدًا من جانب المرتزقة الذين كانوا في خدمته، فسحقهم تمامًا بكل قسوة في سنجاجليا في أواخر شتاء عام ١٥٠٢. وتوفي البابا عام ١٥٠٣؛ وتفتتت دولة قيصر بموت والده - برغم أن رومانا كانت موالية تمامًا - وبعد محن تحملها بكل شجاعة، مات في إسبانيا عام ١٥٠٧.

تسنى لماكيافللي أن يتعرف على قيصر وجهًا لوجه: فكان قد بُعث إليه في مهام عام ١٥٠٢، وأن يتعرف عن كثب على الأساليب التي كان يتبعها قيصر في خداع مرتزقته المتمردين، وبعد سقوطه في روما. والواقع أن «إضفاء الطابع المثالي» على قيصر بورجيا في كتاب الأمير لا يعني بالضرورة أن ماكيافللي قام بتحريف الحقائق الخاصة بقيصر بورجيا على غير النحو الذي عرفها. إنه لم يعمل إلا على الإعلاء من شأنه.

Braccio

براتشييو. أندريا براتشييو دا مونتوني (١٣٦٨-١٤٢٤). قائد مرتزقة تدرب على يد ألبيريكو دا باربيانو. مات وهو يحارب ضد قوات يوانا ملكة نابولي.

Canneshi

كانسكي. عائلة قوية في بولونيا كانت تدعم سلطة ميلانو ضد سلطة البندقية وفلورنسا. وفي ١٤٤٥، حاول كبير العائلة أن يستولي

على سلطة آل بيتيفولي. وقد قُتل أنيبال بيتيفولي، لكن الجماهير قاومت وأجبر كانسكي على الخروج من المدينة.

Caracalla

كاراكاللا. هوم. أوريليوس أنطونينوس الإمبراطور الروماني في الفترة ١١-٢١٧ بعد الميلاد. ابن الإمبراطور سيفيروس، وقد ورثا هو وشقيقه جيتا عرش والدهما بعد موته. وفي عام ٢١٢، قتل جيتا فتولى كاراكاللا بمفرده السلطة التي مارسها بصورة وحشية. ولزيادة الدخل العام، منح المواطنة الرومانية لكل المواطنين الأحرار في الإمبراطورية. ومات مقتولاً بتحريض من ماكرينوس.

Carmagnola

كارمانولا. هو فرنثيسكو بوسوني كونت كارمانولا حيث ولد عام ١٣٩٠. عمل بوصفه واحدًا من المرتزقة في جيش البندقية عام ١٤٢٥. وفي فترة ما أصبح قائدًا لقوات البندقية وفلورنسا العسكرية المشتركة، لكنه اتهم بالخيانة وأعدم في البندقية عام ١٤٣٢.

Charles VII

شارل السابع (١٤٦١-٢٢). ملك فرنسا الذي فقد الإنجليز في عهده كل ممتلكاتهم الفرنسية فيما عدا مدينة كاليبس. وقد قام شارل السابع بعدد من الإصلاحات المالية والعسكرية مما ساعد على دعم السلطة الملكية.

Charles VIII

شارل الثامن (٧٠-١٤٩٨). أصبح حاكم فرنسا الفعلي عام ١٤٩٢ بعد أن تزوج دوقة إقليم بريتاني في العام السابق. غزا إيطاليا (بدافع من الحب العام للشهرة والسيادة) عام ١٤٩٤، تأكيداً على حقه في عرش نابولي بوصفه وريثاً لبيت أنجو. ودخل نابولي عام ١٤٩٥. وتشكل تحالف غير معلن - يشمل إسبانيا والإمبراطور - لقطع طريق انسحابه. وبرغم أن الإيطاليين كانوا الأكثر عدداً، فإن الفرنسيين استطاعوا أن يصلوا إلى الجزء الشمالي من البلاد آمنين بعد معركة فورنوفو المتعادلة في نتائجها. وفي ١٤٩٦، أُجبرت القوات الفرنسية الباقية على الجلاء من نابولي. ومات شارل الثامن وهو يعد لحملة ثانية ضد نابولي.

Colonna, Cardinal

كولونّا (كاردينال). هو جيوفاني ابن أنطونيو كولونّا أمير ساليرنو. عيّن كاردينالاً عام ١٤٨٠. تآمر مع شارل الثامن ضد الإسكندر السادس، وتوفي عام ١٥٠٨.

The Colonna

الكولونّا. أفراد إحدى عائلات النبلاء الرومان التي ذاع صيتها في القرن الثالث عشر. استصدر الإسكندر السادس قرار حرمان ضدهم وصادر ملكياتهم.

Commodus

كومودوس. هو م. كومودوس أنطونينوس، الإمبراطور الروماني لأعوام ٨٠-١٩٣. جاء خلفاً لوالده ماركوس أوريليوس، ولكنه كان مغايراً له تماماً في سمعته؛ فقد اشتهر حكمه بقسوة لا حد لها. شنته المصارع نارتشسوس بتحريض من ربة البيت وأفراد الأسرة.

Conio, Alberigo Da

كونيو (ألبريجودا). هو ألبريجودا بريانو كونت كونيو في رومانا. وبسببه، على الأغلب، حل المرتزقة الإيطاليون محل فرق المرتزقة الأجانب في إيطاليا في الربع الأخير من القرن الرابع عشر. كوّن ألبريجودا جماعة عسكرية أطلق عليها اسم «فرقة سان جورج» لم يقبل فيها إلا الإيطاليين. مات عام ١٤٠٩.

Cyrus

قورش. مؤسس الإمبراطورية الفارسية. قتل في إحدى المعارك عام ٥٢٩ ق.م.

Darius

داريوس. هو دارا آخر ملوك الفرس ٣١-٣٣٦ ق.م.

DAVID

داود (١٠١٢-٩٧٢ ق.م تقريباً). اعتلى عرش إسرائيل خلفاً لشاءول، ووسع أراضيها من خلال سلسلة من الانتصارات العسكرية الرائعة. استولى على أورشليم حيث أقام عاصمة قومية.

Epaminondas

إبامينونداس. القائد ورجل الدولة الطيبي الذي استطاع أن يسيطر على اليونان لصالح أهل طيبة.

Fabius Maximus

فابيوس ماكسيموس. قنصل روما خمس مرات، ونُصّب ديكتاتورًا عام ٢١٧ ق.م في أثناء الحرب ضد هانيبال حين ساءت سمعته بسبب سياسته الحذرة. وقد كان معاديًا للقائد والقنصل الروماني سكيبيو. وتوفي عام ٢٠٣ ق.م.

Ferdinand Of Aragon

فرديناند (ملك أراجون) (١٤٥٢-١٥١٦). مثل زواجه من إزابيلا ملكة قشتالة خطوة حاسمة في إنشاء السلطة الإسبانية العالمية في القرن الخامس عشر. وبعد عام ١٤٧٤، أصبح مشاركا لإيزابيلا في حكم قشتالة، وأصبح ملكًا على أراجون عام ١٤٧٩. وقام عام ١٤١٩ بغزو غرناطة، آخر ممالك الفاتحين المسلمين في إسبانيا، واحتلالها بصورة نهائية. وقد كانت سياسة فرديناند الخاصة بالتركز داخل بلاده تصاحبها سياسة خارجية تهدف بالأساس إلى تطويق فرنسا. وتوصل فرديناند إلى اتفاق مع الفرنسيين بشأن اقتسام نابولي، وبحلول عام ١٥٠٥ كان قد أحكم قبضته على المنطقة كلها. وخلفه حفيده شارل حاكم النمسا (الإمبراطور شارل الخامس).

Duke Of Ferrara

فرارا (دوق).

(١) إركولي ديستي حاكم فرارا (١٤٧١-١٥٠٥) الذي جاء خلفاً لأخيه غير الشقيق بورسو ديستي، الذي كان أول دوق، مع أن الأسرة كانت موجودة في فرارا منذ وقت مبكر من القرن الثالث عشر. تزوج إركولي ابنة فيرانتى ملك نابولي. وقد أدت به النزاعات الاقتصادية مع البندقية والمطالبات الإقطاعية للبابا إلى التحالف مع البندقيين وسكتس الرابع ضد فيرانتى وإركولي عام ١٤٨١. وانتهت الحرب التي شملت عدداً كبيراً من الدول الإيطالية بخسائر إقليمية كبيرة منيت بها فرارا بعد أن تراجع سكتس عن موقفه. ومن ١٤٩٩، بعد الغزو الفرنسي لميلانو، التحق إركولي بخدمة البلاط الفرنسي وحصل على الحماية الفرنسية. وخلفه في الحكم (٢) ألفونسو ديستي. وقد ارتبط ألفونسو بحلف كامبراي (راجع: لويس السابع) عام ١٥٠٨. وظل ألفونسو حليفاً لفرنسا بعد تسوية الخلاف مع البندقية في ١٥١٠، وصدر ضده قرار الحرمان من الكنيسة، وشن يوليوس هجوماً عليه. وتوفي ألفونسو عام ١٥٣٤

Duke Filippo

فيليبو (دوق). هو فيليبو فيسكونتي آخر دوق لآل فيسكونتي في ميلانو (١٢-١٤٤٧). زوّج ابنته بيانكا فرنشيسكو سفورتسا.

Fogliani, Giovanni

فوجلاني (جيو فاني). مواطن بارز في فيرمو، قتل عام ١٥٠١.

Countess Of Forlì

فورلي (كونتيسة) هي ماترينا سفورتسا (١٤٦٣-١٥٠٩). ابنة غير شرعية لكل من جاليتسو سفورتسا ولوكريتسيا لاندياني. تزوجت جيرولامو رياريو كونت فورلي، وتولت السلطة بعد اغتيال زوجها عام ١٤٨٨ حتى استولى قيصر بارجيا على فورلي عام ١٥٠٠. وتم سجنها في روما. وفي نهاية المطاف ماتت في دير فرنسي.

The Gracchi

الجراكي. عائلة رومية شهيرة. وقد اغتيل تيريوس جراكوس (المحامي العام في ١٣٣ ق.م) بعد أن حاول تقييد سلطة الأرستوقراطية. وكان أخوه سي سيمبرونيوس جراكوس (المحامي العام في ١٢٣ ق.م)، الذي دعا إلى إصلاحات واسعة، معارضا قويا لمجلس الشيوخ الذي استطاع في النهاية أن يستميل الشعب. وبعد حادث شغب قُتل فيه عدد كبير من أنصاره، مات مقتولا بيد واحد من أرقائه.

Duke Urbino

جويدوبالدو (دوق أوربينو) (١٤٧٢-١٥٠٨). آخر دوق في سلالة مونتيڤيلترو. حكم أوربينو ابتداءً من عام ١٤٨٢. هرب عند دخول قيصر بارجيا عام ١٥٠٢، وعاد إلى المدينة حين نفذ مرتزقة قيصر مؤامرتهم على الأخير. نشر بلاطه كتاب **Book of the Courtier** الشهير، عن صفات رجل البلاط المثالي.

Hamilcar

هملقار. تم تعيين هملقار برقة قائدًا للقوات القرطاجنية في صقلية عام ٢٤٧ ق.م في أثناء الحرب البونية الأولى.

Hannibal

هانيبال (٢٤٧-١٨٣ ق.م). ابن هاميلكان. قضى جل حياته في محاربة الرومان. أصبح قائد الجيش القرطاجني عام ٢٢١ ق.م، وغزا إيطاليا من الشمال في الحرب البونية (القرطاجنية) الثانية لكنه فشل في إخضاع روما، وفي النهاية تم إيقاع الهزيمة به على نحو حاسم في إفريقيا. وأجبر على الفرار من قرطاجنة وتناول السم حتى لا يأسره الروم.

Heliogabalus

هليوجابالوس أو Elagabalus إلجابالوس. إمبراطور رومي في الفترة ١٨-٢٢٢. دُعي «هليوجابالوس» لأنه أُعدّ في طفولته ليكون قسًا على دين إله الشمس هليوجابالوس. وادعت جدته أنه ابن الإمبراطور كاراكالا ثم أدت حملة قصيرة إلى هزيمة ماكرينوس وتنصيبه إمبراطورًا باسم م. أوريليوس أنطونينوس وهو في سن الثالثة عشرة. وكان حاكمًا أحمق ووحشيًا. وقد قتل في النهاية بيد جنوده.

Hiero Of Syracuse

هيرو (ملك سيراكوزة). هيرو الثاني، أحد أعضاء طبقة النبلاء. أصبح حاكمًا عام ٢٧٠ ق.م بعد أن هزم الميمرتين أبناء المريخ

(ويطلق الآن على ميمرتنا اسم «مسينا»). ساند القرطاجنيين في بداية الحرب البونية الأولى، لكنه عقد فيما بعد صلحاً مع الرومان الذين حافظ على تحالفه معهم. وقد استمد ماكيافللي روايته من جستين.

Joanna, Queen

يوانّا (الملكة). يوانّا الثانية ملكة نابولي. كانت حاكمة ضعيفة دخلت نابولي في عهدها (١٤-١٤٣٥) في حالة فوضى مستمرة. اتخذت من ملك أراجون وريثاً لها، لكنها غيرت رأيها واتخذت بدلاً منه لويس أمير أنجو الذي كان مدعوماً من البابوية. وفي الصراع الحادث، تحارب قائدا المرتزقة، سفورتسا وبراتشو، وجهاً لوجه. وتوفيت يوانّا من دون أن تنجب أطفالاً بعد أن عينت رينيه أمير بروفانس، شقيق لويس. وفي نهاية المطاف، ظفر الأرجونيون بالمملكة.

Julian

جولييان. م. ديدوس جوليانوس، عينه الحرس الإمبراطوري بعد مقتل بيرتيناكس عام ١٩٣ م. وقد تم قتله مع وصول سفيروس إلى روما.

Julius II

يوليوس الثاني. هو جوليانو ديللا روفيري كاردينال سان بطرس أد فنكولا. اعتلى كرسي البابوية في الفترة ١٥٠٣-١٥١٣ خلفاً للكاردينال فرنشيسكو بيكلولوميني الذي نُصّب لمدة أشهر قليلة متخذاً لقب بيوس الثالث بعد الإسكندر السادس. كان قائداً نشطاً،

ودبلوماسيًا ورئيسًا ذكيًا استطاع أن يعزّز السلطة المحلية للكنيسة بنجاح تام. وأخضع بكل اقتدار سلطة بارونات روما؛ حيث قام في البداية بالتحريض ضد البندقية، ثم تغلب على الحلف المضاد لفرنسا. وأقام يوليوس الثاني في روما مشاريع عظيمة للبناء والنحت، وحطم كاتدرائية القديس بطرس القديمة ووضع حجر الأساس لكاتدرائية القديس بطرس الحالية.

Julius Caesar

يوليوس قيصر. ولد حوالي عام ١٠٢ ق.م. وكما أشار ماكيا قللي، أقام يوليوس قيصر سلطته في البداية لمصلحة الشعب وحاز رضاهم بتسامحه الشديد. وأقام من نفسه ديكتاتورًا على روما قبل أن يتم اغتياله عام ٤٤ ق.م.

Leo x

ليو العاشر (١٤٧٥-١٥٢١). هو الكاردينال جيوفاني دي مديتشي ابن لورنتسو دي مديتشي. أُختير لمنصب البابا عام ١٥١٣، وعزّز من حظوظ عائلة مديتشي بقوة، وذلك بتعيين ستة من ذوي القربى في مناصب الكاردينال، فعين على سبيل المثال ابن أخيه، لورنتسو، دوقًا على أروينو بدلًا من فرنشسكو ديلا روفير. مارس في البداية سياسة يوليوس الثاني المعادي لفرنسا، لكنه توصل إلى تفهيمات مع فرانسيس الأول واستكمل عمليات تسوية الخلافات عن طريق الاتفاقية البابوية لعام ١٥١٦ حيث ساند بموجبها الفرنسيين ضد شارل الخامس. وكان راعيًا سخيا للفنون. وفي فترة توليه منصب البابوية نشر لوثر آراءه المناهضة لصكوك الغفران.

Louis xi

لويس الحادي عشر (٢٣-١٤٨٣). ملك فرنسا منذ عام ١٤٦١. وسع بصورة جوهرية الأراضي التابعة للتاج الفرنسي. وقد أقرت المعاهدة التي خولت له الحق في تجنيد قوات في سويسرا عام ١٤٧٤.

Louis xii

لويس الثاني عشر (١٤٦٢-١٥١٥). ابن شارل دورليانز، وقد اعتلى عرش فرنسا خلفاً للملك شارل الثامن عام ١٤٩٨. كانت لديه ادعاءات عن حقه الشرعي في كل من ميلانو و نابولي، ولم يُضَع وقتاً في الدفاع عنهما. كان أول شيء يقوم به هو إلغاء صفقة مع الإسكندر السادس؛ الأمر الذي مكّنه من التخلي عن زوجته جين ابنة لويس الحادي عشر والاقتران بأرملة شارل التي منحته إقليم بريتاني بوصفها بائنة لها. وفي ١٤٩٩، عقد معاهدة مع البندقية لتقسيم ميلانو وذهب إلى ميلانو في خريف نفس العام. (واستطاع لودوفيكو استرداد البلدة لمدة قصيرة في وقت مبكر من عام ١٥٠٠). وفي نوفمبر ١٥٠٠، وقع لويس اتفاقه السري مع إسبانيا لتقسيم نابولي التي غزاها الفرنسيون عام ١٥٠١. وفي العام التالي اصطدمت القوات، وطُرد الفرنسيون عام ١٥٠٣ شرطردة حتى نهر جاريجليانو. وبعد أعوام قليلة، وقع لويس معاهدة مع كل من البابا وإسبانيا والإمبراطورية لتقسيم أراضي البندقية (تحالف كامبراي). وقد ألحق الجيش الفرنسي هزيمة ساحقة بقوات البندقية عام ١٥٠٩ في موقعة

أجناديللو (أو فايلو)؛ لكن الفرنسيين أصابهم الفتور في الحرب بعد أن حققوا أهدافهم، وبدأ يوليوس الثاني يتقرب من البندقيين. وتزايد العداء بين فرنسا والبابوية، وانتهت محاولة لويس استدعاء القنصل العام إلى فشل ذريع، وإلى تشكيل يوليوس تحالفًا مقدسًا بصورة ناجحة. وفي عام ١٥١٢، انتصر الفرنسيون في موقعة رافينا لكنهم فقدوا قائدهم جاستون دي فوا. وبعد رافينا، تراجع الفرنسيون بحيث لم يبق لهم سوى قلعة ميلانو وقلعة جنوة فقط من كل فتوحات لويس في إيطاليا. (في عام ١٥١٢، اضطرت فلورنسا إلى الانسحاب من مديتشي، ومات يوليوس في ١٥١٣). وفي ١٥١٣، أنهى لويس تحالفه مع البندقية ضد ميلانو، لكن القوات السويسرية كانت قد هزمت الفرنسيين في موقعة نوفارا لصالح مسيميليانو سفورتسا. وفي بداية عام ١٥١٥، اعتلى فرانسيس الأول خلفًا للويس سدة الحكم وعبر جبال الألب على رأس جيش كبير بعد أشهر قليلة من توليه العرش.

Luca, Bishop. Pre Luca

لوقا (الأسقف) [الكاهن لوقا] كما سماه ماكيا فللي (فالمقطع «pre» عند البندقيين يعني كاهنًا «prete» أو قسًا). هو لوقا رينالدي الذي عمل سفيرًا للإمبراطور ماكسيميليان.

Ludovico

لودوفيكو. هو لودوفيكو المورو. ابن فرنشيسكو سفورتسا (دوق ميلانو) وبيانكا مارينا فيسكونتي. استولى لودوفيكو على السلطة في

ميلانو عام ١٤٧٦ بعد أن كانت ولاية العهد لابن أخيه جان جاليتسو؛ وتزوج باترتشا ديستي ابنة دوق فرارا، ودعم موقفه بالتحالف بكل من نابولي وفلورنسا. وقد أدى زواج جان جاليتسو من إيزابيلا (ملكة أراجون) إلى دفعه بعيداً عن نابولي لصالح لودوفيكو؛ الأمر الذي وثق صلة الأخير بفرنسا. وقد دعم لودوفيكو غزو شارل الثامن؛ وبعد الغزو بقليل، مات جان جاليتسو، ومن المحتمل أنه يكون قد قتل بيد لودوفيكو الذي كان قد أعلن أنه الدوق. وانضم إلى تحالف البندقية عام ١٤٩٥ خوفاً من نجاح الغزو الفرنسي. وبعد تراجع الفرنسيين، عقد معهم اتفاقية سلام منفصل. ومع توليه العرش، عاد لويس الثاني عشر (الذي كان يدعي من قبل أنه دوق ميلانو بصفته دوق أورليانز) يطالب بحقه في ميلانو التي دخل إليها عام ١٤٩٩. وبعد عام، حدث هناك تمرد فعد لودوفيكو، إلا أن جيشاً فرنسياً جديداً ألحق به الهزيمة عام ١٥٠٠. وأمضى بقية حياته سجيناً في حصن فرنسي حصين.

Macrinus

ماكرينوس. م. أوبليوس ماكرينوس إمبراطور روماني في الفترة ١٧-٢١٨. جاء من أصول فقيرة ليدخل في خدمة سفروس؛ حيث توصل إلى المناصب تحت قيادة كاراكالا الذي نودي به بعد وفاته إمبراطوراً. وقد هزمه أنصار هيلوجابالوس وقتلوه.

Marquis Of Mantua

مركيز مانتوا. هو فرنسيسكو جونزا أجا أحد المرتزقة الذي قاد القوات الإيطالية في معركة فورنوفو عام ١٤٨٥.

Marcus Aurelius

ماركوس أوريليوس (٢١-١٨٠ م). هو الإمبراطور الروماني إم. أوريليوس أنطونينوس في الفترة من عام ١٦١ إلى عام ١٨٠ م. وكان رواقياً اتسم عهده باضطهاد المسيحيين، وكانت توجهاته تشمل أفكاره الفلسفية. كان حاكماً كفئاً ودهوباً في العمل في وقت واجهت فيه الإمبراطورية صعوبات خارجية وداخلية جمة.

Maximilian

ماكسيميليان (١٤٥٩-١٥١٩). ابن الإمبراطور فريدريك الثالث وخليفته. عُيِّن ملكاً على أهل روما عام ١٤٨٦ ولم يتوج إمبراطوراً على روما لكنه اتخذ لقب الإمبراطور المنتخب عام ١٥٠٨ بموافقة يوليوس الثاني. استخدم زوجته في مهام دبلوماسية شاقة استهدفت بناء النفوذ الأوربي لأسرة هابسبورج. في الداخل أكان ماكسيميليان ناجحاً إلى حد ما في المحاولات التي كانت تتطلع إلى بناء مركزية إدارية موحدة. ومع أن طموحاته كانت واسعة جداً اتسم عهده في النهاية بالإحباط والفشل. كان هذا الأمر مرتبطاً بحلمه الخاص بقيادة حملة أوربية لا هوادة فيها ضد الإسلام، وبجهوده لإعادة بناء سلطة إمبراطورية في إيطاليا. وقد كانت غاراته على إيطاليا مدفوعة، في المقام الأول، برغبته في استعادة الأرض من البندقيين: لكن العجز المالي الدائم والتخوف من نجاح العسكرية الفرنسية جعلت انتهاج سياسة متماسكة أمراً مستحيلاً. أفلم يكن هذا متعارضاً مع

الغزو الفرنسي لإيطاليا عام ١٤٩٤ الذي ربما يكون قد تم على أمل الحصول على تأييد شارل الثامن ضد البندقية؟ وعلى أي حال، فقد انضم ماكسيميليان عام ١٤٩٥ إلى تحالف البندقية الساعي إلى طرد الفرنسيين، على الرغم من أن قواته كانت غائبة تمامًا في معركة فورنونو. وفي عام ١٤٩٦ منحه حاكم ميلانو (لودوفيكو) وأهل البندقية إعانة مالية ليحارب لصالحهم في إيطاليا ضد الفرنسيين؛ وبعد فشل الغزو الفرنسي في تحقيق ما كان يصبو إليه، أسند إليه لودوفيكو مهمة فاشلة ومثيرة للسخرية وهي مساعدة بيزا ضد الهجوم الفلورنسي. وباءت محاولته لشن حرب ضد لويس الثاني عشر عند توليه الحكم بالفشل، كما أن خططه منيت بفشل ذريع في الصراع مع سويسرا، وكانت النتيجة النهائية هي إقامة اتحاد سويسري محايد ومستقل. وفي عام ١٥٠٧، عاد ماكسيميليان إلى مشروع إحياء الإمبراطورية في إيطاليا؛ لكنه تخلى عن مشروعه ليذهب إلى روما ليتوج إمبراطورًا، وبدأ أعمالًا عدوانية ضد البندقية استمرت بشكل متقطع لمدة ثمانية أعوام. وفي ١٥١٢ انضم للحلف المقدس وعاد إلى نشاطه في إيطاليا بعد تولي فرانسيس الأول واستعادة الفرنسيين ميلانو عام ١٥١٥، لكن جهوده باءت بالفشل من جديد. وكان حفيده هو الإمبراطور شارل الخامس.

Maximinus

ماكسيمينوس. هو الإمبراطور الروماني سي يوليوس فيروس ماكسيمينوس (٢٣٥-٢٣٨ م). أسند إليه الإسكندر سفير وس قيادة المجلس الأعلى للجيش واختار هذا الأخير الذي ربما كان مسئولاً

عن مقتله خلفاً له. وكان عهده القصير وحشياً ودموياً. وقد قامت قواته العسكرية بقتله.

Nabis

نابيس. هو طاغية إسبرطة الذي اشتهر بوحشيته. تولى عام ٢٠٧ م. هزمه فيلوبومين في إحدى المعارك عام ١٩٢، واغتيل بعد ذلك بقليل.

Oliverotto Of Fermo

أوليفروتو (حاكم فيرمو). أوليفيروتو أيفريدوتشي. وأحداث فيرمو التي يذكرها ماكيا قللي وقعت عام ١٥٠١. وقد تم شقنه في سنجاجليا عام ١٥٠٢.

Remirro De Orco

ريميرو دي أوركو. هو راميرو دي لوركه المتحدث باسم قيصر بورجيا الذي رافقه إلى فرنسا عام ١٤٩٨. عُيِّن حاكماً على رومانا عام ١٥٠١. وقد تم العثور عليه قتيلاً عام ١٥٠٢.

The Orsini

الأورزني. أسرة رومانية اشتهت عودها في النصف الثاني من القرن الثالث عشر. استعان به قيصر بورجيا في حملاته المبكرة بوصفه واحداً من المرتزقة. شارك في المؤامرة ضد قيصر الذي أوقع به في سنجاجليا.

Paulo, Signor

باولو (السيد باولو). هو باولو أورزني قائد فرقة أورزني الذي تم شنقه في سنجاجليا بعد أن أوقع به قيصر جورجيا.

Pertinax

برتيناكس. هو الإمبراطور الروماني بي هلفيوس برتيناكس الذي تولى منصب الإمبراطور لمدة أشهر قليلة عام ١٩٣ م حيث تم إقصائه بتولى السلطة بعد وفاة كومودوس. سرعان ما قابل جنود الحرس الإمبراطوري إصلاحاته المندفعة - خصوصًا المتعلقة بنظام العمل بالجيش - بالنفور وقتلته قوات التمرد.

Petrarch

بترارك. فرنشيسكو بترارك (١٣٧٤-١٣٧٤). أحد أعظم الشعراء الإيطاليين. وكان ماركيافللي، الذي كثيرًا ما يقتبس منه، على دراية واسعة بأشعاره. والأبيات الأربعة الواردة في نهاية كتاب الأمير مأخوذة من الأغنية السادسة عشرة البائدة بعبارة «بلاد دي الإيطالية»، الموجهة إلى حكام إيطاليا، تمثل احتجاجًا ضد حربهم الضروس واستعانتهم بالمرتزقة الأجانب.

Petrucchi, Pandolfo

باندولفو بروتشي. حاكم سينا الذي أقام نفسه سيدًا عليها عام ١٥٠٢. وكان حليفًا مشكوكًا في ولائه للبندقية. وقد أوفد ماركيافللي للتفاوض معه مرات عديدة.

Philip Of Macedon

فيليب المقدوني.

(١) ملك مقدونيا (٣٥٩-٣٣٦ ق.م). اتبع سياسة توسعية عدوانية لإخضاع بقية بلاد اليونان. قتل وهو يستعد لقيادة القوات اليونانية ضد بلاد فارس.

(٢) ملك مقدونيا (٢٢٠-١٧٨ ق.م) شارك في حربين ضد الرومان الذين ألحقوا به هزيمة تامة عام ١٩٧.

Philopoemen

فيلوبومين. أعلن قائدًا عامًا لتحالف الأخيين الذين حاولوا بناء استقلال للأخيين على أساس عسكري سليم. وكان قد عُيِّن قائدًا عامًا لأول مرة عام ٢٠٨ ق.م.

Count Of Pitigliano

بتيليانو (كونت بتيليانو). هو نيقولو أورزيني (١٤٤٢-١٥١٠) أحد مرتزقة البندقين، وكان قائدًا مشاركًا في معركة فايل.

Pyrrhus

بايروس (٣١٨-٢٧٢ ق.م) ملك إبيروس الذي حاول غزو مقدونيا. شن حربًا ضد الرومان في إيطاليا وضد القرطاجنيين في صقلية.

Romulus

رومولوس. المؤسس الأسطوري لروما وأول ملك لها.

Rouen

روين. هو جورج دامبواز رئيس أساقفة روين (١٤٦٠-١٥١٠).
المستشار الأكثر نفوذاً للويس الثاني عشر وخصوصاً في الإشراف
على مشاريعه التجارية في إيطاليا. عينه الإسكندر السادس كاردينالاً
عام ١٤٩٨ كجزء من صفقة بينه وبين لويس.

San Gorgio

سان جورج. الكاردينال رافايللو رياريو السافوني.

San Pietro Ad Vincula

سان بطرس آد فنكولا. انظر: يوليوس الثاني.

San Severino, Ruberto Da

سان سفيرينو (روبرتو دا سان سفيرينو). أحد أبناء نابولي مجهول
الأصل. شارك في حرب المرتزقة في لومبارديا. عُيِّن قائداً لقوات
البندقية عام ١٤٨٢ وقد أدى خدمة للبابوية في وقت لاحق. ومات
وهو يحارب لصالح البندقية عام ١٤٨٧.

Saul

شاءول. اختير كأول ملك لإسرائيل نحو عام ١٠٢٥ ق.م.

Savonarola, Girolamo

سافونارولا (جيرولامو) (١٤٩٨-٥٢). وُلد في فرارا، والتحق بجامعة الرهبان الواعظين (الدومينيكان). قضى الجزء الأكبر من حياته في هدوء. في الأعوام الأولى من ثمانينيات القرن الخامس عشر، أرسل إلى دير سان ماركو في فلورنسا حيث بدأ بصورة متواضعة. لكن قدرته الوعظية - التنبؤية والنهوية - ضمنت له منذ حوالي عام ١٤٩١، حين أصبح رئيسًا لدير سان ماركو، مجموعة كبيرة من الأنصار. وبعد طرد آل مديتشي، حينما ثبتت صحة تحذيراته بوضوح، زاد نفوذه السياسي بصورة مطردة، ووصل هذا النفوذ حده الأعلى في الفترة من ١٤٩٤ إلى ١٤٩٧. فجاء الدستور الجمهوري الذي تم إقراره عام ١٤٩٤ - إلى حد بعيد - وفقًا لأفكاره. وقد أثار سافونارولا معارضة عنيفة كما أبدى تفانيًا شديدًا. وقد أثار دفاعه الصريح والثابت للكنيسة غضب الإسكندر السادس ليمنعه من الوعظ أولًا؛ وليستصدر ضده قرارًا بالحرمان الكنسي في نهاية المطاف. وسرعان ما انقلب عليه الرأي العام في فلورنسا. وفي عام ١٤٩٨، بعد أن هدد الإسكندر بفرض الحظر على فلورنسا، كان سافونارولا سجينًا ومحكومًا عليه بالتعذيب والإعدام.

Scali, Giorgio

سكالي (جورجو سكالي). قائد الفصيل الفلورنسي الذي هاجم عام ١٣٨٢ قصر أحد السادة محاولًا إنقاذ صديق من العقاب. وقد عوقب هو نفسه بقطع الرأس.

Scipio

سكيبو. بي كورنيليوس سكيبيو أفريكانوس (٢٣٤-١٨٣ ق.م). قائد وقنصل روماني عظيم. قاد حملة عسكرية ناجحة في إسبانيا وإفريقيا حيث أحرز نصرًا حاسمًا على هانيبال. وقد اتهم بالفساد واستبعد من روما.

Severus, L. Septimius

سفروس (ال. سيپتيميوس). إمبراطور روماني في الفترة ١٩٣-٢١١ م. ولد عام ١٤٦، وتولى قيادة الجيش في عهد كل من ماركوس أوريليوس وكومودوس. وفي عام ١٩٣، نادى به جيشه في إيليريا إمبراطورًا فتوجه إلى روما. وبعد وفاة جوليانوس، ألحق هزيمة بسينيوس نيجر الذي نادى به الفيلق الشرقي للجيش الروماني إمبراطورًا عام ١٩٤. وهزم كلوديوس ألبينوس الذي كان قد نودي به إمبراطورًا في جاول. ومات سفروس في إيبوراكوم (يورك).

Sforza, Cardinal

سفورتسا (الكاردينال). أسكانيو سفورتسا شقيق لودوفيكو المورو. استبعده البابا الإسكندر السادس (الذي كان داعمًا لانتخابه) حين كان شارل الثامن يستعد لغزو إيطاليا، فانضم إلى الكولونا الذي كان يعمل لصالح فرنسا. وبعد أن استولى لويس الثامن على ميلانو عام ١٥٠٠ ألقى الفرنسيون القبض عليه.

Sforza

سفورتسا (والد فرنشيسكو). موتسيو أتندولو سفورتسا (١٣٩٦-١٤٢٤). مرتزق تدرب كما تدرب منافسه براتشيو على يد ألبيريكو دا باريانو وقتل سفورتسا وهو يعمل في جيش يوانا ملكة نابولي.

Sforza, Francesco

سفورتسا (فرنشيسكو سفورتسا) (١٤٦٦-١٥١١) أحد المرتزقة الذين التحقوا بخدمة دوق ميلانو فيليبو فيسكونتي (١٤٤٧-١٤٩٧) وتزوج ابنته غير الشرعية بيانكا ماريا. وبعد وفاة فيسكونتي، استولى على الدوقية (١٤٥٠). وقد استطاع أن يحافظ بنجاح على وضعه في ميلانو، كما أن خمسة من سلالته تناوبوا دوقية ميلانو.

Sixtus

سكستس. البابا سكستس الرابع الذي اختير لهذا المنصب عام ١٤٧١. واسمه فرنشيسكو ديللا روفيره وابن أخيه هو جليانو ديللا روفيره، الذي أصبح فيما بعد البابا يولويس الثاني، وقد توفي عام ١٤٨٤.

Soderini, Piero

سودريني (بييرو سودريني). انتخب عام ١٥٠٢ رئيسًا لقصر الرياسة مدى الحياة (أي رئيسًا للدولة من الناحية الفعلية). كان صديقًا حميمًا لماكيافلي. وقد اتبع سياسة داعمة للفرنسيين بصورة متماسكة. وفر من فلورنسا عند عودة آل مديشي عام ١٥١٢

Theseus

تيسيسوس. أحد أبطال أتيكا الأسطوريين. ابن أيجيوس ملك أثينا. من مآثره أنه ذبح الحيوان الخرافي مينوطور في متاهة كريت.

Quintius Titus

تيتوس كونتيوس. هو فلامينيوس تي كونتيوس القنصل الروماني عام ١٩٨ ق.م. قاد حرباً ضد فيليب ملك مقدونيا الذي ألحق به الهزيمة عام ١٩٧.

Antonio Da Venafro

أنطونيو (أنطونيو دا فنافرو). مستشار باندولفو بروتشي حاكم سيينا الذي ساعده ليكون في هذا المنصب وسفيره. كان موجوداً في ماجيوني عام ١٥٠٢ عندما قام مرتزقة قيصر بورجيا بمؤامرتهم ضده.

Vitelli, Niccoló

فيتيللي (نيقولو فيتيللي) أوليفروتو حاكم شيتا دي كاستللو. هاجمه البابا سكستس الرابع الذي شيد، كما ذكر ماكيافللي، حصوناً قام نيقولو بهدمها بعد أن استرجعها لورنتسو دي مديشي. ومات نيقولو عام ١٤٨٦

Vitelli, Paulo

فيتيللي (باولو فيتيللي). عمل كمرتزقة في فلورنسا في إطار أعمالها الحربية ضد بيزا عام ١٤٩٨. وتم سجنه بسبب الشك في خيانتة، وإعدامه عام ١٤٩٩.

The Vitelli

الفتيللي. عائلة مرتزقة نبيلة من عائلات شيتا دي كاستللو في الولايات الرومية.

Vitelozzo

فيتللو تسو. هو فيتللو تسو فتيللي قائد مرتزقة وشقيق باولو فتيللي الذي زامله في العمل مع قوات فلورنسا العسكرية. هرب عندما تم إعدام باولو بتهمة الخيانة. انضم إلى قوات قيصر بورجيا ولعب دورًا في التآمر عليه. وتم قتله في سنجاجليا عام ١٥٠٢.

Xenophon

إكسنوفون. [ويُنطق أيضًا «زينوفون»]. أثيني من القرن الخامس قبل الميلاد. رافق الجيش اليوناني الذي زحف بقيادة قورش الملك ضد الملك ارتكسترا (ارتحستا) عام ٤٠١. وقاد اليونانيين في انسحابهم الشهير الذي سجله في كتابه أناباسيس.

الناشئ

إصدارات

شروق بنجوين  Shorouk Penguin

- دون كيخوته ثريانتس
ترجمة: عبد الرحمن بدوي
- أندروماك جان راسين
ترجمة: طه حسين
- الأمير نيقولو ماكيافلي
ترجمة: محمد مختار الزقزوقي
- هاملت وليم شكسبير
ترجمة: جبرا إبراهيم جبرا
- ترويض الشرسة وليم شكسبير
ترجمة: سهير القلماوي
- السيدة صاحبة الكلب وقصص أخرى أنطون تشيخوف
ترجمة: أبو بكر يوسف
- الحاج مراد ليو تولستوي
ترجمة: مجد الدين حفني ناصف
- المتحذلقات مولير
ترجمة: محمد بدران - محمد عبد الحافظ معروض
- پيجماليون جورج برنارد شو
ترجمة: محمد عناني
- القضية الغريبة للدكتور جيكل ومستر هايد روبرت لويس ستيفنسون
ترجمة: محمد عناني
- تورتيلا فلات جون شتاينبك
ترجمة: سيد جاد
- مغامرات توم سوير مارك توين
ترجمة: سحر توفيق

الناشئ

«على المرء أن يكون ثعلباً ليعي الفخاخ المنصوبة له، وأن يكون أسداً ليرهب الذئاب». هذه هي رسالة كتاب الأمير الذي أثار صدمة لدى صدورهِ في أوروبا بسبب دعوته إلى امتلاك القوة المطلقة، ونبذ المعايير الأخلاقية التقليدية كافة.

أصبح اسم نيقولو ماكياڤلي (١٤٦٩ - ١٥٢٧) مرادفاً لعبارة الغاية تبرر الوسيلة. وأضحت الماكياڤلية مصطلحاً سياسياً يترجم العبارة السابقة. وقد عمل ماكياڤلي في العديد من الدواوين الملكية والبابوية. وتمت محاكمته عام ١٥١٢ بتهمة التآمر على آل مديتشى؛ مما أدى إلى اعتقاله الحياة العامة بعد إطلاق سراحه؛ حيث وضع مسودة كتاب الأمير. وفي الفترة نفسها تقريباً كتب كتابه الشهير «خطاب أو دياالوج بشأن لغتنا». كما قام بكتابة رواية قصيرة وطائفة من القصائد والمسرحيات في السنوات العشر ما بين ١٥١٥ و ١٥٢٥. وفي عام ١٥٢٥. زار ماكياڤلي روما ليقدم كتابه عن تاريخ فلورنسا إلى البابا كليمنت.

على الرغم من وجود ترجمات عديدة إلى العربية لكتاب الأمير، فإن هذه الترجمة لمحمد مختار الزقزوقي والتي صدرت لأول مرة عام ١٩٥٨. هي بلا شك أفضلها وأكثرها دقة ورصانة. والمترجم من كبار المترجمين المصريين، عمل في الأربعينيات من القرن الماضي معلماً في المملكة العربية السعودية؛ حيث أسهم في التأسيس والإشراف على العديد من المدارس هناك.

Shorouk Penguin



شروق بنجوين

